أسّسها أ. لويس خليفة (†)
سنة ١٩٩٠

رئيس التحرير
أ. أيّوب شهوان

اسرة التحرير
الأرشمندريت نيقولا أنتيبا
الأباتي بولس تنّوري
أ. أسعد جوهر
أ. موسى الحاج
السيّدة ماري عطاالله خليفة
أ. جورج خوام
الأخت باسمة خوري
أ. نعمة الله الخوري
أ. لويس خوند
الأخت ماري-لويز شهوان
د. منى عبيد
أ. جان عزام
أ. انطوان عوكر
أ. يوسف فخري
أ. بولس الفغالي
أ. انطوان مخائيل
المطران بطرس مراياتي
أ. ريمون الهاشم

في هذا العدد

الافتتاحيّة: رمزيّة لبنان في العهد القديم ـــــ رئيس التحرير ٢
مجدُ لبنان ـــــ الرئيس شارل حلو ٧
أرز لبنان لا يخضع إلاّ للربّ! ـــــ الخوري بولس الفغالي ٩
جبيل مدينة الحضارات ومركز ديني مميّز ـــــ د. أنطوان قسيس ١٥
«معي من لبنان أيّتها العروس ستأتين...» ـــــ الخوري جان عزّام ٢١
لبنان والبيبليا: دفقُ حُبٍّ وجمالٍ وخير ـــــ د. أنطوان خوري حرب ... ٢٥
أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان إلى الكرمل؟! (أش ٢٩:١٧) ـــــ الخوري نعمة اللّه الخوري .. ٣١
«ارتفعت كالأرز في لبنان» (سي ٢٤:١٣) ـــــ الأخت باسمة الخوري ٣٥
مياه لبنان دفقُ خيرٍ وبركةٍ وحياة ـــــ الأخت صونيا الغصين ٣٩
«لبنان يا قطعة سما»! ـــــ أ. فادي أحمر ٤٣
رمزيّة لبنان وأرزه في حزقيّال ١٧ ـــــ الشدياق فؤاد الطبش ٤٧
رموزيّة الأرز في حزقيّال ٣١ ـــــ الخوري داني افرام ٥١
وادي لبنان ـــــ الخوري بولس الفغالي ٥٥
أليست «كامد اللوز» هي «لُوز» البيبلية؟ ـــــ رنى ريمون حريز ٥٩
رمزيّة انفتاح صور في الكتاب المقدّس ـــــ جان فرح وفريحة عقيقي... ٦٥
صرفت صيدا ـــــ الخوري بولس الفغالي ٦٩

ثمن العدد
في لبنان : ٥٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها
في الخارج : ٨٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الاشتراك السنوي (٤ أعداد)
في لبنان : ٢٠٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها
في الخارج : ٣٢٠٠٠ ل.ل. أو ما يعادلها

العنوان
كليّة اللاهوت الحبريّة
جامعة الروح القدس – الكسليك
ص.ب.: ٤٤٦ جونيه – لبنان
فاكس: ٠٩/٦٤٢٣٣٣
هاتف: ٠٩/٦٤٠٦٦٤ المقسّم ١١٥

الافتتاحيّة

رمزيّة لبنان في العهد القديم

مقدّمة

رئيس التحرير

خلال سنيّ دراستي للاهوت في جامعة الروح القدس، وتخصّصي في روما في علم الكتاب المقدّس، ثمّ في لاهوته، وإبّان إقامتي ودراستي في القدس بنوع خاص، لفتت نظري دائماً مسألة رمزيّة لبنان في نصوص عديدة من الكتاب المقدّس. وكان اطلاعي الأوّلي والبدائي على بعض النصوص الفينيقيّة التي لها نصوص موازية في بعض كتب العهد القديم، وأنا طالب في كليّة اللاهوت، الدافع الأوّل إلى الاقتراح على أحد أساتذتي مشروعاً يقضي بكتابة «عهد قديم فينيقي–لبناني»، يتضمّن التحف الأدبيّة الكوسموغونية، والپانْتيُون الفينيقي واختصاصاته وما يقال في كلّ من أفراده، ثمّ الروائع الشعريّة المزموريّة المتنوّعة كتنوّع المزامير البيبليّة، الخ. لم يكن الدافع روحاً قوميّة أو عصبيّة وطنيّة شبابية وحسب، بل أيضاً رغبة مصرّة على تبيان الروابط النصوصيّة بين البيبليا والأدب الفينيقي، من جهة، واكتشاف نقاط اللّقاء بين الوحي الالهي التوحيدي الهابط من فوق، والسموّ الروحي الفينيقي خاصة والشرق أوسطي عامةً الصاعد من الخبرة الروحيّة والانسانيّة والعقليّة المجبولة بعرق الجبين. أحببت حضارة أرضي، وحلمت بجلاء عظمتها يوماً، لتتربّع على عرش الشراكة بين حضارات الشعوب التي تشهد لعظمة الانسان المبدع والخلاّق.

عندما اقترحت موضوع رمزيّة لبنان في الكتاب المقدّس كبرنامج لأبحاث طلاّب الحلقة الأولى في كليّة اللاهوت الحبرية في جامعة الروح القدس، للعام الجامعي ١٩٩٧–١٩٩٨، كنت أنطلق في تنفيذ حلم لقي طرحُه على الإدارة التشجيع وعلى الطلاب الاستحسان. كنت أعرف مسبقاً مدى المخاطرة، إن من حيث ندرة الأبحاث المخصّصة حصراً للموضوع، وإن من حيث الوقت الذي قد يسلبه على حساب باقي الأبحاث المفروضة على الطلاّب. اتّكلنا على الذي «زار لبنان مرّة»، وألفى فيه إيماناً لم يجده حتى بين أفراد شعب اللّه، ووضعنا ثقتنا فيه وفي الإرادة الحسنة، وانطلقنا بفرح، واندفاع، وتصميم.

منهجيّة العمل

منذ البداية رسمنا خطة عمل علمي دقيقة تتضمّن المحاور التالية :

١ - البحث عن النصوص التي تتكلّم على لبنان صراحة أو تلميحاً، وفق تصميم يشمل ما يلي :

أ - الطبيعة :

- الجبال: جبل لبنان، جبل حرمون أو بعل حرمون، أو سنير، أو سيريون، الخ؛
- المطر، والثلج، والضباب، والغيوم، والندى، والمياه، والينابيع، والأنهار؛
- الشجر، والثمر، والنبات؛
- الحيوانات الدابة، والطائرة، والسابحة.

ب - المدن :

صور، صيدا، وصرفت صيدا، وجبيل/بيبلوس، وأفقا، وكامد اللّوز أو لُوز، وفينيقيا عموماً، وغيرها.

ج - الغنى المكَدَّس من المصادر التالية :

الزراعة، والصناعة وما يرتبط بها من تخصّص تقني وعلمي ومهارة، والتجارة، والإبحار...

د - الديانة :

من حيث تعدّد الآلهة، والممارسات الطقسيّة وما تتضمّنه من احتفالات، وتقادم، وذبائح، وعادات خاصّة، الخ.

٢ - دراسة رمزيّة العناصر التي تكون قد جُمعت، بالاستناد إلى التقاليد الكتابيّة المتوفّرة في المكتبات، وإلى المقارنة بين بعضها البعض، وبين نصوص أخرى من خارج البيبليا، بلوغاً إلى التحاليل الشخصيّة.

٣ - استخلاص المعنى البيبلي والروحي للنصوص المختارة.

في هذه الأثناء، ومنذ اليوم الأوّل، قمت بدراسة موضوع الرمزيّة بحدّ ذاته مع الطلاّب، وحاولنا التعمّق قدر الامكان في فهم الرمزيّة التي هي من الثوابت في كلّ الحضارات ولدى كلّ الشعوب.

الرمزية البيبلية

في الكتاب المقدّس، الرمز موجود من سفر التكوين حتى سفر الرؤيا. الرمز هو جواب على إحدى حاجات الفكر البشري الذي يستمتع بأن يعبّر بالصورة الخلاّقة، ويبرهن أنّه مُبدع، وقادر على أن يحلّ الألغاز المنتشرة في كل أرجاء البيبليا.

الكلام الرمزي تعبير عن حقيقة تتخطّى المحسوس والمادي. تكون هناك رمزيّة عندما نترجم الفكرة، بمظهر لا يكون نسخة مباشرة عنها، بل يوحي بها بطريقة بليغة.

يقول پول ريكور: «إذا كنّا لا نعرف كيفيّة عمل الرمزيّة في نصّ ما، ليس فقط لا نعرف لأي موضوع نبحث عن المصادر، بل لا نعرف أيّة مصادر تكمن وراء النص، كما لا نعرف إلى أيّ حدّ يختلف النص عن مصادره بعدما صار ما هو عليه»[1].

في الرمزيّة ينبغي إخضاع المعطيات الماديّة والتاريخيّة الأساسيّة لعملانيّة الرمزيّة، والمعطيات السمعيّة البصريّة للمرامي التي يسعى الكاتب إلى بلوغها، وبالتالي إخضاع الكلمات للنص.

بالنسبة إلى الكاتب البيبلي، الرمز هو المكوّن الأساسي للغته. يقول پول ريكور بأنّ «الرمز يدفع إلى التفكير»[2]؛ يُبيّن لنا هذا القول سخاء الموجودات وغناها بالمعاني، وبالتالي، من خلال اكتشاف ما هو خفيّ في المنظور، ندخل في سرّ اللّه خالق كلّ شيء واللاّمنظور.

تشبه الرمزيّة البيبلية الحبّة التي يبذرها الزارع في حقله، فلا تبقى مفردة بل تعطي ثلاثين وستين ومائة صورة رمزية شيقة.

من أجل دراسة الرموز في الكتاب المقدس، بشكل عام، من المفيد جمعها لتوضيح الواحد بالآخر، عن طريق التشابه أو التعارض أو التضاد:

- عن طريق التشابه مثلاً: الكرمة، والخمرة، والمعصرة، والكأس.
- عن طريق التعارض أو التضاد، مثلاً:
  - الماء يمكن أن يكون رمزاً للحياة والخصب، من جهة، وللتدمير والتخريب والتقتيل، من جهة ثانية، وهذا ما نتبيّنه منذ بداية سفر التكوين، حيث مياه السماء مختلفة عن المياه التي في الأعماق أو تحت الأرض، والمياه التي تروي غير تلك التي تدمر، الخ.
  - كذلك السيف المسلّط فوق الشعب الأمين أو الخائن، يكون للواحد رمز الحماية، وللآخر رمز تهديد أو إبادة.
  - والنار أيضاً ترمز إلى غضب اللّه، كما إلى الحب الملتهب، أو إلى الحسد القتّال...

ينبغي ألاّ يغيب عن البال أنّه من الصعب الكلام على اللّه سوى بلغة مثقلة بالرموز، وأن هذه الأخيرة تتنوّع مع الكُتّاب ووضعهم التاريخي والشخصي.

مَن شاء سَبر غور الرمز لا يستطيع أن يقف موقف المتفرّج، بل عليه أن يكون فاعلاً، ومتأمّلاً، وبالتالي مختلياً اختلاء الناسك المنفصل لأجل اللّه. لا حياة للرمز من دون قارئ له ومكتشف لأبعاده. من خصائص الرمز أن يكون أبداً إيحائيّاً، فيرى فيه كلّ واحد ما تسمح له قدراته أن يكتشف.

رمزية لبنان في البيبليا

لقد أصبح لبنان في نظر بني اسرائيل مرادفاً للجمال، والقوّة، والخصب، والديمومة، وشاهداً على عمل الخالق وعنايته، وبهاء خَلْقِه، والجبل الحَسَن، والنضارة التي لا تذوي (أش ٢:١٣؛ حز ٣١:٣)، الخ. لبنان هو اللّوحة الخضراء الرائعة الجمال التي تزهو في وسطها الأرزة الشامخة والخالدة والمتحدّية.

يرسم لنا الكتاب المقدّس صورة مميّزة عن لبنان، يبرزه فيها على أنّه الجبل الأبيض المغطّى بالثلج، كما بالغابات العابقة برائحة البخور، والمزيّنة بالأرز الطيب الشذا، والغني بالثلج والمطر والندى، وبالتالي بالينابيع والأنهار.

ويحفظ لنا الكتاب عينه معلومات هامّة ومثبتة عن المعتقدات والطقوس الدينيّة والفينيقيّة وتأثيرها على بني اسرائيل في هذا المجال. والسبب في هذا التأثير عائد إلى نجاحات الفينيقيّين، الصيدونيّين

١- Paul RICŒUR, *Ermeneutica biblica. Linguaggio e simbolo nelle parabole di Gesù* (Morcelliana: Brescia 1978).

٢- المرجع نفسه.

والصوريّين والجُبيليين بنوع خاص، في حقول الزراعة والتجارة والصناعة، الأمر الذي اعتبره بعض من اليهود نتيجة لقدرات الآلهة الفينيقيّة الفائقة، فكان الوقوع في تجربة الإشراك في الإيمان.

كلّ هذه المعطيات وغيرها عبّر عنها الكاتب الملهم برموز وصور وتشابيه متنوّعة، لا بُدّ لاكتشافها من الغوص في عالم الآثار والتاريخ والآداب واللّغات وغيرها.

أمر آخر هام في رمزيّته ومدلولاته، هو البُعد الأسكاتولوجي الذي لبنان مصدر إلهامه بالنسبة إلى عدّة أنبياء؛ فلقد رأى هؤلاء في لبنان صورة عن الفردوس الموعود والمنتَظر، وعن الرجاء الذي كانت تغذّيه أجيال تلو أجيال ومنه تغتذي.

بالمقابل، وعلى نقيض ما تَقدَّم، مَن منّا لا يُفاجأ أو يُصْدَم لدى قراءة نصوص كالتالية :

- قض ٩:١٥ : «فلتخرج نار من الشوك وتلتهم أرز لبنان»؛
- مز ٢٨:٥ : «يحطم الربّ لبنان»؛ الخ.

وعلى العكس، مَن منّا لا يُسَرّ لدى قراءة الآيات الشعريّة الرفيعة التالية :

- «الصدّيق كأرز لبنان ينمي» (مز ٩٢:١٣)؛
- «عطرك كعطر لبنان» (نش ٤:١١)؛
- «منظره كمنظر لبنان» (نش ٥:١٥)؛
- «مجد لبنان أعطي له» (أش ٣٥:٢)؟

في التفسير البيبلي اليهودي، كما في الأدب التلمودي، هناك رمزيّة هامّة محورها لبنان الذي يمثّل غالباً، وعلى سبيل الاستعارة (métaphore)، هيكلَ أورشليم وشعب اللّه الذي يصلّي فيه، لأنّ الهيكل ينقّي اسرائيل من خطاياه، ويجعله أبيضاً كثلج لبنان:

«إذا كانت خطاياكم كالقرمز، فإنّي أبيّضها (לבן) كالثلج» (أش ١:١٨).

هناك شعور بالحاجة قويّ إلى إدراك الرموز التي لبنان مصدرها ومرجعها. مَن قرأ البيبليا شَعَرَ بالرموز المستعارة من لبنان وجماله تنبض في كيانه وتخلبه. من هنا ضرورة تفسير معنى مختلف الصور اللّبنانيّة التي يضجّ بها الكتاب المقدّس، انطلاقاً من دراسة كلّ منها في إطارها الطبيعي والجغرافي والتاريخي والشعري...

خاتمة

نختتم هذه الافتتاحية بأجمل الكلام عن لبنان والكتاب المقدّس للراحل الكبير الدكتور شارل مالك، هو التالي:

«يحتلّ الكتاب المقدّس مكاناً مميّزاً بين الكتب؛ لهذا ستدوم شهادته إلى الأبد، ومعه تبقى الصورة التي رسمها عن لبنان؛ هذا يعني أنّ مَن يقرأ هذا الكتاب، الآن وإلى دهر الدهور، سيتأمّل الصورة الخالدة التي رسمها عن لبنان»[٣].

المواضيع التي عالجها الطلاّب[٤]

فادي الأحمر	رمزيّة طبيعة لبنان في الكتاب المقدّس: جبل لبنان وحرمون.
جورج اسكندر	الأرز، رمز القوّة عند حزقيال وإرميا.
داني افرام	رمزيّة الأرز في حزقيال ٣١.
فؤاد الطبش	رمزيّة الأرز في حزقيال ١٧.
عزّت الطحش	لبنان في نشيد الأناشيد.

فريحة عقيقي وَ جان فرح	رمزيّة انفتاح صور في الكتاب المقدّس، خاصّة في سفر حزقيال ٢٦-٢٧.
جوزف عبّود	جمال لبنان في نشيد الأناشيد.
الياس عدوان	رمزيّة الأرز في المزمور ٩٢.
صونيا غصين	رمزيّة طبيعة لبنان في الكتاب المقدّس: مياه لبنان، خاصّة الثلج والندى.
مقرح مقرح	عطر لبنان في العهد القديم.
قزحيّا نعمان	رمزيّة صور في حزقيال ٢٦:١٥-٢٢.

٣- الدكتور شارل مالك، لبنان في ذاته (مكتبة التراث اللبناني، بيروت ١٩٧٤) ٧٩.

٤- بسبب ضيق المجال، اضطرّت إدارة مجلّة «بيبليا» أن تختار بعض مواضيع الطلاّب المذكورة لتكون جنباً إلى جنب مع أبحاث أخرى أنتجها بعض أفراد أسرة التحرير.

عاج محفور بشكل فني رائع. وُجد في كامد اللّوز

ناووس أحيرام الجبيلي، من القرن الحادي عشر ق. م.،
وعلى غطائه أقدم أبجديّة فينيقيّة (متحف بيروت الوطني)

مجدُ لبنان

شارل حلو
رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة سابقاً

لبنان يعني الجبل الأبيض. دعي بذلك لبياض ثلوجه التي تكسو هضابه وتغطي قممه. وللبنان معنى آخر في اللّغات الأشوريّة والعبريّة والآراميّة، كما في العربيّة أيضاً، وهو اللّبان، أي البخور والكندر، وقد سُمِّيَ بذلك لما يتصاعد من جوانبه، من الروائح العطرة التي تنشرها غاباته ونباتاته ذات العرف الذكي.

اشتهر لبنان، على مدى التاريخ، بغابات أشجار أرزه التي تغطي جروده وأعاليه. فتلك الشجرة ذات الخشب الصلب الثقيل، الجميل اللّون والعروق، اليابس كالجلمود، الملس كالزجاج، الزاهي كالورد، والتي لا تقوى عليها الأعاصير والأزمان، ولا يدنو السوس منها، سرعان ما أضحت رمز «مجد لبنان» والشاهد على بقائه وخلوده.

ها هو أشعيا النبي ينبري ليمجّد أرز لبنان :

«ستفرح البريّة والقفر، وتبتهج البادية، وتزهر كالورد.

قد أوتيت مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون.

فهم ينظرون مجد الرب وبهاء إلهنا».

ثمّ يقول في موضوع آخر :

«مجد لبنان يأتي إليك، السرو والسنديان والشربين،

جميعا لزينة مقدسي، وامجد موطئ قدمي».

تغنّى صاحب نشيد الأناشيد بروعة لبنان وجمال أرزه، في عبارات حوت الكثير الكثير من رقة المشاعر وصدق الأحاسيس، عندما راح ينشد :

«الملك سليمان صنع لنفسه تختا من خشب أرز لبنان».

ويصف منادياً حبيبته :

«هلمّي معي من لبنان، أيّتها العروس، معي من لبنان».

ثمّ يهتف متجلياً :

«حبيبي طلعته كلبنان، هو مختار كالأرز».

أمّا مجد لبنان، الأغر، الباقي على الأمد، فقد سطع سناه وتألّق، يوم وطئت قدما يسوع المسيح تراب جنوبه، وجاب أطرافه، حاملاً بنفسه مشعل الانجيل، ليهدي الإنسانيّة الضالّة والظامئة إلى الحياة والحب، مناهج الحق والخير والكمال، ويوم اختار لبنان، ليصنع على أرضه، في قانا الجليل، أولى عجائبه، بتحويله الماء خمرًا.

شاء قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني أن يضفي على لبنان مجداً تفجّر من نفسه الطاهرة الكبيرة، عندما أعلن على الملأ :

«لبنان ليس مجرد وطن فقط، بل هو رسالة حضاريّة للعالم».

ولا ريب أنّ الحضارة الحقيقيّة تنبثق من المحبّة والحريّة والكرامة، وهو الثالوث الذي تكوّن منه لبنان، وكان سبب صموده وبقائه، بالرغم ممّا تصدّى له من حروب ومؤامرات، وممّا جابهه من كوارث وويلات، على كرور وتوالي السنوات.

إذا كان اللّه والأنبياء والعظماء قد مجّدوا لبنان، فحريّ باللبنانيّين أن يمجّدوه هم أيضاً، بصونه مساحة من أرض قداسة وقديسين، ووطناً يتنفّس فيه كلّ إنسان من رئتيه، هواء المحبّة والحريّة والكرامة...

أرز لبنان الخالد يتعالى نحو السماء، فلا يوحي إلا بالخشوع أمام الخالق وبتمجيده

(Gravure E. Riou 1833-1900)

أرز لبنان لا يخضع إلاّ للربّ!

الخوري بولس الفغالي

حين تتكلّم النصوص القديمة على الأرز، تشير إلى الصلابة والديمومة والقوّة. وحين نقرأ لفظة «إرز» في اللّغة العبريّة، نفهم أنّنا أمام شيء صُنع من الأرز، فبدا شديداً متيناً. بل وصل الاشتقاق إلى اللّغة العربيّة فقال: «شجرة أرزة»، أي قويّة وصلبة. وردت كلمة «أرز» سبعاً وسبعين مرّة في الكتاب المقدّس، ففهمنا أن هذه الشجرة تتفوّق على باقي الأشجار، وهي تقيم في جنّة اللّه، بل هي تخصّ اللّه، بحيث تحدّثت النصوص عن «أرز اللّه»، «أرز الربّ». وارتبطت بلبنان، فقال فيها أشعيا: «مجد لبنان أُعطي له». ومع ذلك، فنحن حين نقرأ النصوص، نظنّ أنّ الربّ يريد أن «يحطّم الأرز»؛ فكيف نفهم كلام الكتاب المقدّس في هذا المجال؟ نتوقّف هنا عند ثلاثة مقاطع:

الأوّل **يجعل العوسجة تجاه الأرز: أتراها تستطيع أن تحرقه؟**

الثاني **يسمعنا صوت اللّه الذي يكسر الأرز، يكسر أرز لبنان، دون أن يقول لنا السبب.**

الثالث **يقابل بين اللّه والأرز: مَن هو أقوى؟ أترى يستطيع الأرز أن يستكبر ويتعالى تجاه ذاك الذي «حطّ المقتدرين عن الكراسي ورفع المتواضعين»؟**

١ – الأرز والعوسجة (قض ٩: ٧–١٥)

يرد هذا النص في سفر القضاة، وهو يقدّم مثلا من الأمثال. كان أبيملك بن جدعون قد نصب نفسه ملكاً على بني شكيم. قتل إخوته جميعاً، فما بقي سوى يوتام الذي جاء ينبّه المدينة من الخطر المحدق بها، مع احتقار لهذا الملك. اعتبر نفسه أرزة متينة صلبة؛ فإذا هو عوسجة، بل إن هذه العوسجة تريد أن تسيطر، تحرق وتدمّر.

صوّر يوتام الوضع في البلاد مع هذا النظام الجديد الذي لم يكن الشعب يرضى به، وهو الذي اعتبر أنّ اللّه وحده ملك فيه. فهذا الانسان الحقير يتعدّى على حقوق اللّه، وهذه العوسجة التي لا نفع منها، تريد أن تهاجم الأرز، فهل تقدر عليه؟ وهكذا بدا الأرز للوهلة الأولى وكأنّه يتماهى مع اللّه، لأنّه شجر اللّه. وفي هذا قال مز ١٠٤: ١٦: «أشجار الربّ تشبع مطراً، أرز لبنان الذي غرسه».

البداية مع العوسجة، والنهاية مع الأرزة، وبين الاثنتين ذكر المثل ثلاث أشجار تزيّن أرض الموعد، أرض الربّ: «الزيتونة» التي تعطي زيتاً لمجد اللّه في هيكله، وتفرح قلب الانسان بما تحمل من عطر؛ و«التينة» التي تحمل الحلاوة والطيب للملوك؛ و«الكرمة» التي تستعمل في شعائر العبادة فترضي اللّه، وفي أعياد الناس فتحمل إليهم الفرح. شجرات ثلاث مفيدات رفضت أن تكون ملكة. أمّا تلك التي لا فائدة منها، فنصبت نفسها ملكاً، فبدت صورة عن أبيملك الذي فعل ما فعل بأهل شكيم. فوجب عليهم أن يحرقوه كما تُحرق العوسجة، قبل أن يحرقهم هو. فما هي هذه الملكيّة التي يغذّيها الطموح الشخصي، ولا يدفع إليها نداء من الربّ، كما كان الأمر مع شاول وداود، ولا تحركها روح المسؤوليّة؟

ولكن قد تتغلّب العوسجة لفترة محدودة، وفي النهاية تزول. قد تُضايق الزيتون والتين والكرم، ولكنّها لا تستطيع أن تصل إلى الأرز الذي هو أرفع الأشجار، فلا تقدر عليه يد بشريّة. ولبنان حيث ينبت الأرز، يرتفع فوق كلّ أرض في هذا الشرق. لهذا، بدت السخرية واضحة: كيف تواجه هذه الشجرة الصغيرة فخر البلدان جميعاً

ومقام الملوك والآلهة؟ أقام سليمان في غابة من الأرز (١ مل ٧:٦-٧)، وغشّى الهيكل كلّه، جدراناً وسقفاً بخشب الأرز الذي لا يصل إليه سوس ولا تطاله يد الفناء؛ إنّه رمز الخلود. أمّا النتيجة فنقرأها في ٢ مل ١٤:٩، في كلام ردّده الملك يوآش، ملك اسرائيل في أذن أمصيا ملك يهوذا، فأفهمه أن يقف عند حدّه: «أرسل العوسج بلبنان إلى الأرز يقول: زوّج ابنتك لابني. فمرّ وحش البريّة في لبنان، وداس العوسج». أترى العوسج يواجه الأرز؟ أترى هذا الملك الضعيف يواجه مَن هو أقوى منه دون أن يحمل إلى أرضه الموت؟

٢ - صوت الربّ كالرعد (مز ٢٩: ١-١١)

لا تقدر شجرة، مهما عظمت، على الأرز. هي لا تستطيع أن تواجهه ولا أن تقاومه. فالأرز لا يقابَل بسائر الأشجار، سواء كان السرو والدلب والسنديان والآس. نقرأ في حز ٣١:٢ كلاماً عن الفرعون وعظمته؛ يشبّهه النبي بأرز لبنان العالي، بأغصانه الجميلة والوارفة الظلّ؛ وحوش البريّة لا تدوسه، بل تقيم في ظلّه؛ والمياه الغزيرة لا تهدّده، بل ترفده الحياة. مقام الأرز في جنّة اللّه: «أين للسرو مثل أغصانه؟ أين للدلب مثل فروعه؟ لا جمال يساوي جمال الأرز، ولا حسن يتفوّق على حسنه» (خر ٣١:٨).

غير أنّ هذه الشجرة التي زيّنت جنّة اللّه، قد تشامخت وجعلت رأسها بين الغيوم. ما خافت من الخليقة. أتراها لا تخاف اللّه الذي صنعها، كما صنع الجبال التي ألّهها البشر؟ بل هي تخاف صوت اللّه وترتجف. فأمام الربّ ترتعش الأرض وتتزعزع، وتهتزّ أسس الجبال (مز ١٨:٨). ومثلها الأرز لا يقف ثابتاً أمام الربّ القدير وإله الأكوان. يكفي أن يسمع صوته. هذا ما نكتشفه في المزمور التاسع والعشرين.

هذا المزمور هو امتداح لصوت اللّه، أي للرعد. هو أقدم أناشيد التوراة. استلهم مديحاً كنعانيّاً لهدد، إله الرعد، وجُعل بشكل فعل إيمان باللّه القويّ القدير الذي لا يقف بوجهه الملوك، ولا تثبت أمامه الطبيعة المؤلّهة، سواء كان حرمون الجبل المحرّم على البشر والمقدّس، أو كان لبنان بجباله الشاهقة التي تحدّاها غلغامش وصعدها، فوصل إلى أرزها الذي يعيّد له أهل شمال لبنان في السادس من آب، في ما يسمّى عيد الربّ، بعد أن كان العيد عيد أرز الربّ.

أبناء اللّه أو أبناء الآلهة هم الملوك. فالملك في التوراة يُصبح قائماً مقام اللّه. يوم يعتلي العرش، يتبنّاه اللّه، كما نقرأ في المزمور الثاني: «قال لي الربّ، أنا الملك: أنت ابني وأنا اليوم ولدتك». وفي الحضارات الشرقيّة، من مصر إلى بابل، الملك هو صورة اللّه على الأرض، هو اللّه. إذن، يتوجّه الخوف إلى ملوك الأرض الذين يعتبرون نفوسهم من مصاف الآلهة، فلا يعودون يهتمّون بالبشر الضعفاء، بل هم ينحازون إلى الأشرار ولا يحكمون للذليل واليتيم، ولا ينصفون الفقير والأرملة، ولا ينقذون الوضيع والبائس (مز ٨٢:٢-٤). فاللّه يأتي كالقاضي فيقضي من أجل شعبه، وكالديّان الذي يدين من يموتون مثل بشر، ويسقطون مثل أي عظيم، ويبقى اللّه وحده واقفاً والملوك عند قدميه.

ما هو سلاح اللّه كي يخضع الملوك؟ صوته، صوت الرعد. ترد هنا لفظة «صوت» سبع مرّات، فتدلّ على ملء قدرة اللّه التي تفعل. هذا الصوت يفعل في المطر الغزير الذي يلي البرق (آ ٧) والرعد. يفعل الآن، فيدعو الملوك إلى الخضوع والتوبة، كما في خبرة الخروج (خر ٩:١٤: لا نظير لي في الأرض). وقد فعل منذ البدء، فهدّأ المياه الأولى وأخرج منها الحياة، في البداية وبعد الطوفان. في البيت الثاني (آ ٥-٦)، نسمع صوت الربّ يفعل في لبنان، في جبل لبنان المقدّس، الذي هو مسكن بعل، وسيكون في ما بعد بغاباته، مركز العبادات الكنعانيّة التي عرفت البغاء المكرّس والزنى في ظلّ المعابد. وحين يُذكر لبنان، يذكر الأرز الذي هو رمز العظمة والقوّة. فطموح الملوك وقواد الحرب كان الوصول إلى شجر الأرز وقطعه. يشير أشعيا إلى أحد الطغاة (لا يذكر اسمه) الذي جاء بأصوات الهتاف، فقطع السرو وأرز لبنان (أش ١٤:٨). ولكن لبنان يبقى أقوى وأرزه يبقى صامداً. لهذا، فهما يشمتان بهذا الذي احتلّ الجبل، لأنّه لن يصعد من بعد، لأنّه ضعيف، وذاهب إلى الموت.

ومن جبل لبنان، يتابع صوت اللّه مسيرته حتى يصل إلى سريون، أي حرمون (تث ٣:٩). فالجبال التي هي علامة الصمود والثبات، تخاف وتقفز كالعجل بين يديّ صاحبه. فاللّه يُمسك الملوك بخزامة (أش ٣٧:٢٩)، كما يمسك الفلاّح ثوره.

نلاحظ هنا السخرية مع الكلام على العجل الذي يمثّل عبادة الصحراء مع هارون، وما فعله الملك يربعام في بداية مملكة الشمال (١ مل ١٢:٣١-٣٢).

أمّا الثور فيشير إلى أرض مصر. وفي النهاية، يصل صوت الربّ إلى نهاية المطاف، فتتحرّك البريّة كما المرأة حين تلد، ولكنّها لا تلد. الأيائل تطّرح، الغابات تتعرّى من أوراقها، حتى وإن كانت أشجارها الأرز والسنديان. وهكذا تفقد الطبيعة كلّ مجدها أمام مجد اللّه، كما فقد الملوك عزّهم أمام عزّة اللّه. ففي بداية المزمور قال المؤمن للملوك، لأبناء اللّه : «قدّموا للربّ مجداً وعزّة» (مز ٢٩:١)، فهو وحده المجيد، وحده العزيز. فما أرادوا. لهذا بدأ، فضرب الطبيعة، فخضعت له. أما يتعلّم الملوك أن يخضعوا؟ هذا ما يجعلنا في سفر الخروج مع معناه الرمزي والروحي. فالفرعون الذي لا يُذكر اسمه، يقف بوجه اللّه، يعاند اللّه. ضُربت الطبيعة أوّلاً بالبَرَد والوباء...، وفي النهاية، مات بكر الفرعون، فأحسّت البلاد كلّها بموت أبكارها، وخضع الفرعون وشعبه. وإذ عادوا إلى معاندة اللّه، هلكوا في البحر الذي يرمز إلى الشرّ. وفي نهاية مز ٢٩، سينشد شعب اللّه في الهيكل : «المجد لك يا أللّه» (آ ٩). وحين يجلس الربّ على الطوفان كما على عرش، يفهم المؤمن أنّ العزّة عادت إلى الربّ، فأعطاها لشعبه كمقدمة للبركة والسلام.

تصوّر هذا الشاعر أرض الربّ، وكلّ أرض هي أرض الربّ، شرط أن تعبد الاله الواحد، لا الآلهة العديدة، وتراعي الصغار والضعفاء فيها. تصوّر صوت الربّ الغاضب، أي الآتي ليعاقب. يخرج من البحر، يصعد الجبل، جبل لبنان وجبل حرمون، فيصل إلى البريّة ويعود إلى البحر. تكسّر الأرز كقصبة صغيرة، تروّض الجبل كالعجل، خسرت قادش قدسيّتها بعد أن تعرّت أشجارها المقدّسة من أوراقها. أمّا أرض الربّ فما أصابها سوء. هي تعيش في العزّة والبركة والسلام. فقد عرفت يوم افتقادها (إر ٢٧:٢٢؛ لو ١٩:٤٤). عرفت اليوم الذي فيه يزورها الربّ، فاستعدّت لذلك اليوم بالتوبة والتواضع. وما قاله العهد القديم عن الطبيعة والملوك، قاله العهد الجديد عن أورشليم التي رفضت أن تستقبل ربّها، فعرفت الدمار سنة ٧٠ ب. م. كعقاب لها. رفض الجبل أن يخضع، فزُعزع؛ رفضت البريّة أن تخضع، فتزلزلت؛ رفض الأرز أن ينحني، فتكسّر. نحن نلاحظ هنا الصور والرموز؛ فالكلام على الأرز لا يتوقّف عند الأرز، وإن كانت هناك خبرة رأى فيها الناس العاصفة تحطّم الأرز وأغصانه. فالكلام يصل إلى من يمثّله الأرز، إلى الملوك والعظماء الذين ائتمروا على الربّ وعلى مسيحه، ورفضوا سيادتهما. فجاء جواب الايمان : «الساكن في السموات يضحك، الربّ يستهزئ بهم، يؤنّبهم في غضبه، وفي غيظه يرعبهم» (مز ٢:٤-٥). «يرعاهم بعصا من حديد». لو كانت عصا الراعي، لكانت من خشب، ولكنّها من حديد؛ بعد أن رفض الملوك التعقّل والحكمة، عند ذلك صار الملوك كإناء من خزف، فحطّمتهم قدرة اللّه. ولماذا؟ لأنّهم تكبّروا، ونسوا شعبهم، ولا سيّما الفقراء. إذن، لا بدّ من ملك يعيد الحكم للّه، والعدل والانصاف في وسط الشعب. مثل هذا الملك يدوم ما دامت الشمس وما دام القمر جيلاً بعد جيل (مز ٧٢:١-٥).

٣ - مجيء الربّ (أش ٢:٦-٢٢)

حسب الملوك أنّهم وحدهم، فسادوا ومادوا، ولكنّهم نسوا أنّ اللّه هو ملك الملوك. اعتبروه غير موجود على مثال الجاهل (مز ٥٣:٢)، ففسدوا ورجسوا وجاروا. يا ليتهم عرفوا أنّ الربّ من أعلى السماء يُشرف على البشر. اعتبروه بعيداً لا يرى ولا يسمع كالأصنام، ولكنّه القريب الآتي «كي يحطّ المتكبّرين ويرفع المتواضعين». هذا ما نقرأ في هذا النص من كتاب أشعيا الذي يبدأ في آ ٩ فيقول: «انحطّ مقام البشر وسقطوا، فلا يقومون». ولكنّهم في النهاية سوف يفهمون، مهما كانوا عظماء. لهذا «دخلوا في الصخر، واختبأوا في التراب من هيبة الربّ وعظمة بهائه» (آ ١٠).

ماذا نقرأ في هذه القصيدة الأشعيائيّة؟ هناك موضوع أوّل : ظهور الربّ وما فيه من رعب (آ ١٠، ١٩، ٢١) يُحسّ به الانسان في أعماقه (آ ١٠، ١٩، ٢١). وموضوع ثانٍ : انخفاض تشامخ الانسان (آ ٩، ١١، ١٧) تجاه ارتفاع اللّه (آ ١١، ١٧). يذكر النص خطايا بيت يعقوب (آ ٦-٩)، ثمّ يتحدّث عن يوم الرب وضحاياه (آ ١٠-١٦). وفي النهاية، يرفض بطلان الأصنام، سواء كانت من خشب، أوحجر أو من لحم ودم، ساعة يظنّ الملوك أنّهم صاروا من مصاف الآلهة ويجب أن يُعبدوا. ذاك كان الواقع بالنسبة إلى السلوقيّين وأباطرة رومة، بل ما زال الوضع هو هو اليوم، حيث تؤلّه الأشخاص والأفكار والنظريّات والمعتقدات. وننسى ذاك الذي قال لنا : «أنا هو الربّ إلهك، لا يكن لك إله غيري» (خر ٢٠:٢-٣).

يبدأ النبي كلامه بصلاة يوجّهها إلى الربّ، فيريه خطايا شعبه: المال والربح السريع اللّذان هما ثمرة الجور، ويقودان إلى الترف، والكفر، وعبادة الأوثان. ولا

ينسى النبي الحرب التي يمقتها الربّ مع الخيل والمركبات (آ ٨). في آ ١٠، يتوجّه النبي إلى الخطأة. هو لا يذكر خطاياهم، بل يصوّر العقاب الذي ينتظرهم. وما يميّز أشعيا هنا، هو أنّه يبدّل أفق توجّهه : ما عاد محصوراً في بيت يعقوب، بل تحدّث عن الانسان، كلّ إنسان، بشكل عام : كلّ مستكبر متعال، كلّ مترفّع (آ ١٢). ويأتي الكلام مهدّداً؛ فاللّه هو إله الرعد، فعلى الانسان أن يختبئ، لأنّ يوم الربّ آتٍ. لو كانت حياة الناس في البرارة وفي حياةٍ بحسب وصايا اللّه، لما كانوا يخافون، لهذا قال هوشع : «ما أكثر ما أحبّهم! غضبي فارقني. أكون لهم كالندى، فيزهرون كالسوسن، ويمدّون جذورهم كلبنان. فروعهم تنتشر، يكون بهاؤهم كالزيتون، ورائحتهم كلبنان. يرجعون ويسكنون في ظلّي، فيحيون كما في جنّة. يزهرون كالكرم، ويكون صيتهم كخمر لبنان» (هو ١٤:٥-٨).

نجد هنا في هوشع الصورة الحلوة عن لبنان، عن جبال لبنان، بالزهر والرائحة، بالزيتون والكرم والخمر. فكما اشتهر لبنان في الشرق، يكونون مشهورين ومعروفين. فالربّ يمتدحهم كما امتدح أيوب الذي هو «رجل نزيه، مستقيم، يخاف اللّه، ويحيد عن الشرّ» (أي ١:٨). ولكن إن رفضوا أن يسمعوا للرب، إن تشامخوا على العليّ، فسوف ينحطّون.

وهنا تأتي الصور التي تشير إلى كلّ ما هو متكبّر ومترفّع : أرز لبنان، الأرز العالي، بلوط باشان، الجبال العالية، التلال المرتفعة، البروج والأسوار، السفن الكبيرة والمراكب. ونلاحظ لفظة «كلّ» التي تتكرّر: كلّ الجبال، كلّ التلال، كلّ برج، كلّ سور... وينتهي كلّ هذا مع صيغة عامّة: «الانسان، البشر، والبشر...» وينتهي المقطع بعبارة: «ما لكم وللانسان ! في أنفه مجرّد نسمة، فما قيمته؟» (آ ٢٢). هذا ما قاله الحكماء الذين التحقوا بمدرسة أشعيا وسوف يتواصل كلامهم في أش ٢:١٤-١٦ : «ينحطّ مقام البشر ويسقطون، وتنخفض عيون المترفّعين». أمّا الربّ، فيتعالى بقضائه، ويتقدّس بعدله.

هنا نعود إلى حز ٣١ الذي ذكرنا بعضاً من آياته. الكلام الأساسي هو عن فرعون الذي سيهجم عليه البابليّون بقيادة نبوخذنصر. ولكن الانسان لا ينفصل عن الكون، والتاريخ يمتزج بعناصر الطبيعة . أمّا نص حزقيّال، فيبدأ الحديث عن يوم أسود سوف يصيب مصر وملكها (حز ٣٠:٢). في الفصل ٣١، يصوّر الفرعون بشكل أرزة، وفي فصل ٣٢ يبكي النبي على فرعون الذي يشبّهه بالتمساح ويرثيه. امتدّ فرعون واتسع، وكذلك الأرز في لبنان. وكما سقط الأرز، سوف يسقط فرعون. في النهاية، الكلام على فرعون نجد عنه صورة معبّرة في الكلام على الأرز.

خاتمة

حين نقرأ هذه النصوص وغيرها، التي تتحدّث عن أرز يحترق أو ينكسر، أو ييبس لغياب الماء الحي، نظنّ للوهلة الأولى أنّ الربّ يريد أن يحطّم الأرز، يريد أن يُركّع جبال لبنان. ولكن هذا الظنّ ليس في محلّه. أوّلاً نتذكّر أن الشرق القديم، شأنه شأن الشرق الحديث، يتوق إلى رؤية جبال لبنان. فموسى تمنّى في آخر حياته أن يرى ذلك الجبل الجميل لبنان (تث ٣:٢٥)، ولكن الربّ لم يعطه هذه النعمة. ثانياً، لا ننس أنّ الربّ الذي خلق لبنان الجميل، يحتاج إليه لكي يعبّر عن جماله الخاص، عن حبّه لشعبه ولكلّ الشعوب، عن حبّه لكلّ إنسان. قال في نش ٤:١١ : «شفتاك أيّتها العروس (وكلّ واحد منا هو عروس لعريس واحد هو الرب في العهد القديم، ويسوع المسيح في العهد الجديد) تقطران شهداً. تحت لسانك عسل ولبن (لا ننس نبع العسل ونبع اللّبن في جبال لبنان)، ومثل عبير لبنان عبير ثيابك». ويتابع في آ ١٥ : «عروستي معين جنّات وبئر مياه حيّة نازلة من لبنان». أمّا العريس، فطلعته مثل لبنان (نش ٥:١٥)، فلماذا نعتبر أن اللّه يريد أن يزيل هذا الجمال؟ الجمال نرجسة متواضعة تفرض نفسها بنفسها، «فلا تماحك ولا تصيح»، لهذا يحافظ الربّ عليها، يرفعها. أمّا إذا أرادت أن ترتفع، فحينئذٍ تنخفض. وأخيراً الربّ هو الذي خلق الأرز، غرسه بيده، سقاه، حماه من وحش البريّة، فلماذا يريد أن يقتلعه، أن يدمّره، أن يحرقه؟ فالرب هو إله الغرس لا إله القلع، إله البناء لا إله الهدم، إله الحياة لا إله الموت. أمّا الكلام على جبال لبنان العالية، وعلى الأرز الشاهق، فيساعد الملوك والعظماء على أن يعرفوا أن لا يد فوق يد الربّ، ولا عين مرتفعة تجاه الرب، ولا عنق تطال سماء الربّ مهما علت. إذا أراد الملوك الحياة، عليهم أن يتقبّلوا الموعظة، ويعبدوا الربّ بخوف، ويطلبوا حماية اللّه. عندئذٍ يكون اللّه لهم أباً، فيحملهم على ذراعه كما تحمل الأمّ طفلها، ويصلح حالهم كما يفعل الربّ مع قطيعه، ويؤمّن لهم الطعام والشراب (هو ١١:٣-٤) كما فعل في البريّة، وإلا يكون مصيرهم

تحطيماً كالأرز حين تمرّ العاصفة. يتحوّل الكون إلى قفر (أش ١٤:١٧). ذاك هو الوجه السلبي. وفي الوجه الايجابي يجعل الرب القفر مرجاً، والأرض القاحلة مجرى مياه. عندئذٍ تُزرع الحقول، وتُغرس الكروم، وتحلّ البركة في كلّ مكان (مز ١٠٧:٣٥-٣٨). عندئذٍ يصحّ كلام قاله ابن سيراخ: «شمخت كأرزة في لبنان، أو كسروة في جبل حرمون» (٢٤:١٣). مثل هذا الشموخ يفترض التواضع في الطبيعة ولدى الانسان. والخضوع الذي يطلبه الكتاب من الأرز، لا يكون للبشر بل للّه، «الذي له وحده تجثو كلّ ركبة في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض».

«صوت الرب يحطم الأرز، يحطم الرب أرز لبنان» (مز ٢٩:٥)

المقصود بالتحطيم هو فرعون مصر، وليس أرز لبنان

جبيل مدينة الحضارات ومركز ديني مميّز

د. أنطوان قسيس

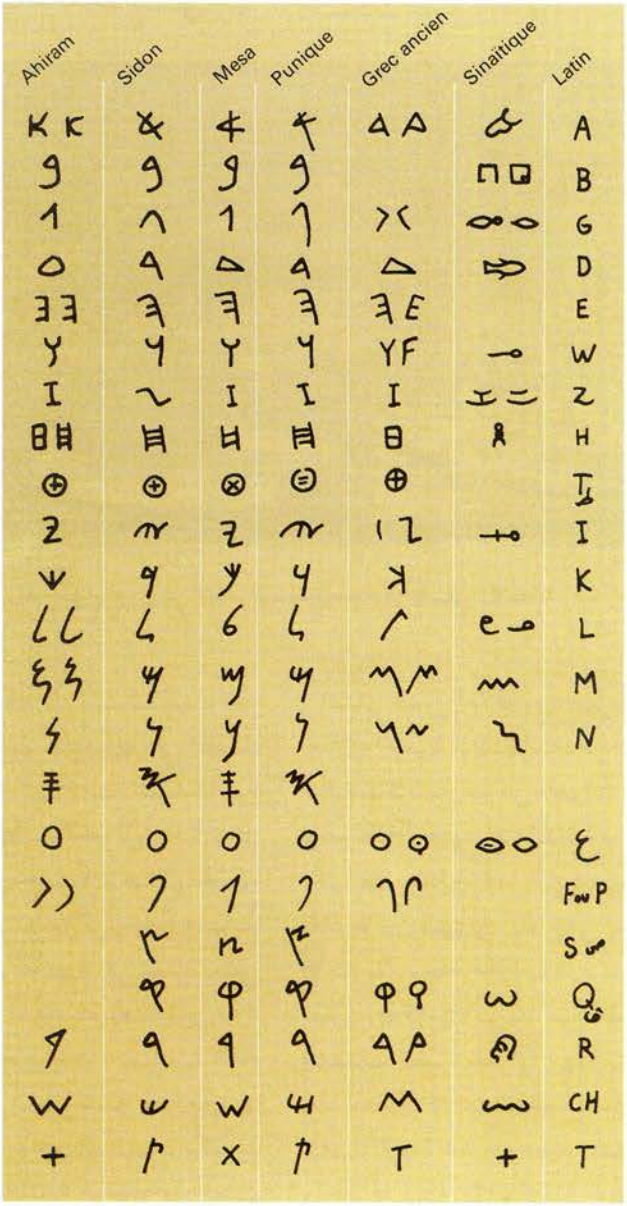

تطوّر الأبجديّة الفينيقيّة التي أعطت الأبجديتين اليونانيّة ثمّ اللاتينيّة

١ – مقدمة

تعود أهميّة مدينة جبيل الى كونها من أقدم المدن اللّبنانيّة التي عرفت تواصلاً حضاريّاً منذ أن سكنها الانسان الأوّل وحتى يومنا هذا. كما يمكن تصنيف هذه المدينة في عداد المدن التاريخيّة القليلة في العالم التي لم تتوقف فيها مسيرة الانسان، منذ حقبة ما قبل التاريخ الى حقبة التاريخ المعاصر. هذا وقد احتلّت مدينة جبيل حيزاً واسعاً في مجال الدراسات الأثريّة والتاريخيّة الكنعانيّة – الفينيقيّة. ذكرها الكتاب المقدس أكثر من مرة باسم «ج ب ل» في العبرية، و«بيبلوس» في اليونانية، في السبعينية.

٢ – الحقبات التاريخيّة

عرفت جبيل في المصادر الأدبيّة السامية باسم «ج/غ ب ل»، والمصريّة «ك ب ن» أو «ك ف ن»، والكلاسيكيّة «بيبلوس»، أمّا في المصادر العربيّة فهي «جبيل». لا نملك حتى اليوم، الامكانيات العلميّة الأكيدة كي نعطي تفسيراً واضحاً لاسم هذه المدينة.

تمتاز مدينة جبيل بحقباتها التاريخيّة المختلفة والمتواصلة في آن، منذ حقبة ما

قبل التاريخ وحتى يومنا هذا، إذ كشفت الحفريات الأثريّة عن أبنية ولُقَى تعود الى مختلف تلك الحقبات.

٢/أ – حقبة ما قبل التاريخ

أقامت في جبيل، منذ الألف الخامس ق. م.، جماعة من الصيادين في القسم الغربي للموقع، بدليل وجود أبنية مستديرة، أدّت الى قيام وحدة مجتمعيّة منظّمة، لها معتقداتها الدينيّة الخاصّة. ونجد لها تعبيراً مادياً في الهيكل، أو في الجرار المدفنية التي عثر عليها في المكان نفسه. تطوّرت هذه الوحدة خلال الألف الرابع ق. م.، فأصبحت البيوت مبنية من الحجارة المنهدمة، كما أخذت شكلاً مربعاً أو مستطيلاً، بينما أصبحت المدافن خارج المنطقة السكنيّة، مع الابقاء على استعمال الجرار لدفن الموتى. ما إن طلّ الألف الثالث ق. م. حتى شمل السكن كامل المنطقة الأثريّة، ليكوّن مدينة كبيرة، لها سور لحمايتها من أي خطر خارجي. كما عرفت المدينة الجديدة نظاماً لجر المياه في داخلها، الأمر الذي يدفعنا الى الاعتقاد بوجود مفهوم واضح لتنظيم المجتمع وتلبية حاجته اليوميّة. لا نعلم، خلال هذه الفترة، إن كانت جبيل قد أقامت علاقات معينة مع حضارات الشرق القديم، إن في مصر أو في بلاد ما بين النهرين.

٢/ب – الحقبة الكنعانيّة

امتدت هذه الحقبة من الألف الرابع ق. م. وحتى نهاية الألف الثاني ق. م.، وتحديداً عند غزوة شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ ق. م. تميّزت هذه الفترة بعلاقات مميزة مع حكم الفراعنة في مصر، وباتصال دائم مع دول بلاد ما بين النهرين. شكلت التجارة، بالأخص تجارة الأخشاب، المجال الأوسع والرئيسي لعلاقة جبيل بدول منطقة الشرق المتوسطي.

٢|ب|١ – العلاقة مع مصر

إنّ أول اتصال مع مصر الفرعونيّة يعود الى نهاية الألف الرابع ق. م. كما تؤكّده حفريات أثريّة حصلت في جبيل في بداية القرن. بينما أثبت نص هيروغليفي، عثر عليه أيضاً في المدينة، وجود علاقة أكيدة منذ عهد الأسرة الفرعونيّة الثانية (حوالي ٢٦٤٠ ق. م.). يبدو أن جبيل، خلال الحقبة الكنعانيّة، كانت مركزاً تجاريّاً وسياسيّاً مهمّاً للحكم الفرعوني في مصر. يكفي أن نلقي نظرة، ولو سريعة، على ما تمّ اكتشافه في حفريات جبيل منذ العام ١٩٢٠، حتى نتبيّن عمق العلاقة بينها وبين حضارة وادي النيل. ذكرت نصوص هيروغليفيّة أن مصر قد جعلت لها مقيماً في جبيل للسهر على حسن العلاقة بين الطرفين ولتنظيم الأعمال التجاريّة. بينما أشارت لُقى أثريّة متنوّعة، وتحمل أيضاً نصوصاً هيروغليفيّة، الى أسماء فراعنة كانوا قد أرسلوا الهدايا الثمينة الى ملوك جبيل، ولنا خير دليل في الكنوز التي عثر عليها في قبور الملك أبي شامو وابنه أبي شامو أبي، والتي أرسلها إليهما الفرعون أمنمحات الثالث وابنه أمنمحات الرابع.

ميناء جبيل/بيبلوس، من أقدم مرافىء العالم. منه صدّر الفينيقيون الأبجدية

استمرّ حسن العلاقة بين جبيل ومصر، خلال الحقبة الكنعانيّة، من دون أيّة شائبة تذكر، بالرغم من متغيرات سياسيّة وعسكريّة شهدتها المدينة من جراء اجتياحها وتدميرها من قبل شعوب دول بلاد ما بين النهرين، بالأخص الشعوب الأموريّة. لم يدم الخراب فترة طويلة في المدينة إذ قامت سريعاً من أنقاضها. فشهدت تطوّراً عمرانيّاً مهماً، إذ أعيد بناء المعابد، لا سيّما معبد المسلات أو معبد الإله رشف، ومعبد بعلة جبل، ومعبد له شكل L. وكذلك تمّت إعادة بناء الأسوار القديمة.

تحوّلت جبيل الى مركز ديني مميز لسكان المملكة، وكذلك بالنسبة إلى المصريّين وفراعنتهم، إذ أرسل هؤلاء التقادم والهدايا إلى معابد جبيل، وبالأخص إلى معبد بعلة جبَل التي شبهها المصريون بإلهتهم إزيس–حاتور. يبدو أن العلاقة الدينيّة قد تعدّت الاطار المادي لنجد لها تأثيراً جبيلياً في الميتولوجيا المصريّة، لا سيّما في النصوص المتعلّقة بقصّة إيزيس وأوزيريس.

عرفت جبيل في منتصف الألف الثاني ق. م. اضطراباً عسكرياً وسياسيّاً من جرّاء هجمات قبائل العابيرو أو الخابيرو بقيادة عبدي عشرتا وابنه عزيرو. قتل بسببها رب–عدي حاكم جبيل، كما اغتيلت عائلته المهربة الى صور. ولم تنفع نداءات الاستغاثة المرسلة الى مصر، وذلك بسبب انشغال الفرعون المصري أمينوفيس الرابع/أخناتون بثورته الدينيّة. إنّما، ومع مجيء رعمسيس الثاني الى الحكم، تبدلت السياسة المصريّة تجاه المدن الكنعانيّة. فقاد الفرعون الجديد الحملات العسكريّة نحو البلاد الكنعانيّة، ووضع حدّاً نهائيّاً لحالة الاضطراب التي سادت فيها. كما أبرم اتفاقاً مع الملك الحثي شوبيلوليوما، أبعد بموجبه خطر تدخلات الحثيين في مناطق نفوذ المصريين. هدأت الحال في جبيل، وعادت التجارة الى سابق عهدها، فازدهرت تجارة الأخشاب من جديد. غدت جبيل مركزاً مهمّاً لاستقبال البضائع الآتية من جزيرة كريت أو من مناطق القوقاز أو من داخل القارة الآسيويّة، وذلك لاعادة تصديرها الى مصر. استمرّت هذه الحالة على هدوئها من دون أن يعكّرها أي شيء، الى فترة وصول شعوب البحر الذين وضعوا حدّاً فاصلاً للنفوذ المصري على المدن الكنعانيّة.

٢|ب|٢ – العلاقة مع بلاد ما بين النهرين

يبدو من خلال مصادر بلاد ما بين النهرين، أن مدينة جبيل هي الوحيدة المذكورة بصورة أكيدة في نصوص مملكة إيبلا، إذ لعبت دور الوسيط التجاري بينها وبين مصر. بينما تذكر نصوص مدينة أور علاقة مميّزة مع ملك جبيل عبداتي (٢٠٤٥–٢٠٣٧ ق. م.) الأموري الأصل، وهو أوّل ملك لجبيل تذكره مصادر هذه المدينة.

استمرّ نفوذ الأموريين في جبيل لعدّة قرون، برزت فيها أسماء ملوك مثل يتن–حامو المعاصر للملك زمري ليم في مملكة ماري حيث استعملت نصوص هذه المدينة الصفة جبلايو للتعريف بأسماء أشخاص من جبيل أو لتسمية ألبسة وسجاد كمصنوعات جبيلية. كما تؤكّد أسماء الملوك أبي شامو، وأبي شامو أبي، وياكنلو، النفوذ الأموري في جبيل خلال النصف الأوّل من الألف الثاني ق. م.

أمّا علاقة جبيل بمدينة أوغاريت فتبدو من خلال المصادر ضعيفة، وانحصرت بتجارة الألبسة والأقمشة.

تجدر الاشارة إلى أنّه، خلال الألف الثاني ق. م.، ظهرت في جبيل كتابات تعرف بهيروغليفيّة جبيل، لم يتوصل العلماء حتى اليوم الى فك رموزها، بينما يعود أقدم نص فينيقي، عثر عليه في المدينة الى القرن الحادي عشر ق. م.، وهو المعروف بنص زكار–بعل المنقوش على خنجره.

٢|ب|٣ – الحقبة الفينيقيّة والبيبلية

امتدّت هذه الحقبة على كامل الألف الأوّل ق. م. المعروف بالعصر الحديدي.

معبد المسلاّت: حجارة منتصبة إكراماً للإله رشف

تميزت هذه الحقبة بأفول قوّة الحكم المصري على مدن فينيقيا، بينما سيطر الآشوريّون، ومَن خلفهم في حكم بلاد ما بين النهرين، على معظم المدن الفينيقيّة، وجعلوها في إطار نفوذهم المباشر.

يبدو أن جبيل لم تَحْظَ باهتمام النصوص البيبلية، بدليل ورود ذكرها فقط عند يشوع (١٣:٥)، في سفر الملوك الأول (٥:٣٢)، وحزقيال (٢٧:٩). يشير اليها يشوع على أنّها بقيت من ضمن الأراضي الكنعانيّة التي لم يتمكن من ضمها الى مناطق حكمه. ويشير سفر الملوك إلى سليمان الذي أراد بناء الهيكل في أورشليم، فأرسلت إليه جبيل عمّالاً مَهَرَة من أجل البناء. وفي سنة ٨٥٣، نعرف أن جبيل تحالفت مع صور على الأشوريين، وهذا ما يساعدنا على فهم مقال حزقيال. فهذا الأخير يذكرها في سياق انتقال المهرة من صناعها في أشغال الخشب للعمل في مملكة صور إبّان ازدهار هذه الأخيرة. ربما يعود هذا الشح في المعلومات عن جبيل في النصوص التوراتيّة، الى أن الكاتب التوراتي يعود الى تقليد حديث لا يرجع الى أكثر من الألف ق. م. حيث ضعف دور مملكة جبيل لصالح الدور الكبير الذي لعبته مَمْلَكَتَا صور وصيدا مجتمعتَين في تبوّء مركز الصدارة بين بقيّة المدن الفينيقيّة.

عرفت جبيل، شأنها شأن بقيّة المدن الفينيقيّة، فترة هدوء واستقلال نسبي، من القرن الحادي عشر ق. م. وحتى نهاية القرن الثامن ق. م. لكنّها اضطرت الى دفع الجزية للملوك أشور منذ حملة تغلت فلاصر الأول (١١١٤-١٠٧٦) الى حملة تغلت فلاصر الثالث (٧٤٤-٧٢٧) الذي ضمّ الى مملكته فينيقيا الشماليّة. أضعف الوضع الجديد بقيّة المدن الفينيقيّة، ومن بينها جبيل، التي استمرت على هذه الحال حتى سقوط الدولة الأشوريّة في العام ٦١٢ ق. م.

إذا كان الأشوريّون قد سيطروا سيطرة تامة على معظم المدن الفينيقيّة، فإنّ الأمر اختلف مع جبيل وصور البحريّة اللّتين حافظتا على استقلال نسبي. لكنّهما استمرتا في دفع الجزية للأشوريّين. حكم جبيل خلال هذه الفترة عدد من الملوك الواردة أسماؤهم في النصوص الآشوريّة أو في النقوش الفينيقيّة، وهم : زكار بعل، أحيرام، أيتوبعل، يحي ملك، أبي بعل، إليبعل، شفط بعل الأوّل، شفط بعل الثاني، أورومیلك الأوّل، وميلك يسف. لم تعط حفريات جبيل أية مصادر ماديّة يمكنها توضيح علاقة المدينة بالآشوريّين.

لم يتغيّر الوضع السياسي في جبيل خلال الفترة البابليّة، إذ استمرّت في دفع الجزية لملوك بابل، لكن قوتها السياسيّة كانت قد ضعفت أمام المدن الفينيقيّة، ولا سيّما صور التي أخذت الدور الأوّل في فينيقيا وفي عالم الانتشار منذ بداية الألف الأوّل ق. م.

عندما سيطر الفرس على الدولة البابليّة أعادوا تنظيم الشرق، فألحقت جبيل بالولاية الخامسة التي جعلت صيدا عاصمتها. يعود الى هذه الفترة بناء قلعة كبيرة ما يزال قسم منها قائماً حتى اليوم. تولى على حكم جبيل خلال هذه الفترة عدد من الملوك عرف منهم : شفط بعل الثالث، أورومیلك الثاني، يحوميلك الثاني، إيل بعل، عزي بعل، أدرميلك وعينال. تحالف هذا الأخير مع الاسكندر الكبير في اجتياحه المدن الفينيقيّة التي دخلت عصراً جديداً له مميزاته الحضاريّة والثقافيّة.

تجدر الاشارة الى أن جبيل قد سكّت النقود إبّان الحكم الفارسي، ابتداءً من منتصف القرن الخامس ق. م.، بعد صور التي سبقتها بنصف قرن. حملت نقود هذه الفترة شعار المدينة، وهو مجسم صغير لسفينة فينيقيّة، بالاضافة الى اسم ملك جبيل باللّغة الفينيقيّة، وهذا أمر انفردت فيه جبيل عن سائر مدن فينيقيا. لكنّها جارت هذه المدن باعتمادها وزن ١٤ غرام كوحدة أساسيّة لسكّ نقودها.

٢|ب|٤ – الحقبة اليونانيّة – الرومانيّة

دخل خلفاء الاسكندر في خلاف كبير حول السيطرة على المدن الفينيقيّة. انفرد البطالسة في حكم مصر والسلوقيون في سوريا. لكنّهم تنازعوا السيطرة على فينيقيا التي خضعت في أغلب الأحيان للبطالسة.

عرفت جبيل الحكمين، إذ دخلت أوّلاً تحت حكم البطالسة، ثم سيطر عليها السلوقيون. شهدت تطوّراً عمرانيّاً لا تزال بقاياه ماثلة للعيان، إذ نلاحظ بقايا سبيل الماء الذي كان ضخماً في السابق، ويقع الى يسار الداخل الى القلعة الصليبيّة؛ بقايا رواق لشارع روماني كبير يؤدي الى معبد البعلة؛ المسرح الروماني المنقول من مكانه الأساسي الى قرب المدافن الملكيّة. كما زينت المعابد، وكثر استعمال الأعمدة في عمليات البناء المختلفة. نظمت المدينة بشوارع جديدة أضيفت اليها الحمّامات.

تشبّعت جبيل خلال هذه الفترة بالثقافة الهلّينيّة، لكنّها ظلّت محتفظة بلغتها الفينيقيّة، بدليل وجود نقوش

تمثال شخص يستوي على عرش، اكتشف في بيبلوس، ويعود الى القرن الثالث عشر ق. م. يمثّل إمّا أحد الآلهة، أو كاهناً أعظم، أو ملكاً
(المتحف الوطني – بيروت)

بهذه اللّغة حتى القرن الأوّل ب. م.، بينما حملت نقود جبيل العائدة للفترة الرومانيّة المتأخرة، كتابات بالفينيقيّة يضاف اليها رسوم تمثل مسلات التقادم على مذابح، أو الإلهة عشترت في معبدها. لم تستعمل جبيل في سكّ النقود سوى الفضة والبرونز، لذا لم يعثر حتى اليوم على أية قطعة نقديّة ذهبيّة تعود اليها.

انتشرت خلال الفترة الرومانيّة عبادة أدونيس وأعياده المعروفة بالأدونيات التي لاقت رواجاً كبيراً في جبيل، ووصلت أصداء طقوسها وعباداتها الى مناطق عديدة من الشرق.

تجدر الاشارة الى أن حفريات جبيل الأثريّة قد أعطت خلال الحقبتين الفينيقيّة واليونانيّة–الرومانيّة أكثر من اثنتي عشرة كتابة فينيقيّة موزعة على كامل الألف الأول ق. م.، ومن بينها كتابة الملك أحيرام التي تعتبر الأساس العملي لدراسة تطور الكتابة واللغة الفينيقيّة، إذ استعمل فيها عشرون حرفاً من أصل اثنين وعشرين التي تتألف منها الأبجديّة الفينيقيّة. أعطت هذه الكتابات عددا مهمّاً من أسماء ملوك جبيل، كما ذكر فيها أسماء آلهة المدينة وهي : بعل شميم، بعلة جبل، ومجموعة آلهة جبيل، بينما لا يرد ذكر أدونيس أو أعياده وعباداته إلا في المصادر الكلاسيكيّة المتأخرة.

٣ – خاتمة

تلك هي جبيل، مدينة الحضارات، بتاريخها العريق. اتصلت بمصر في الجنوب، وببلاد الرافدين في الشرق، وعرفت غزوات المصريين والأشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان. لم تُذكَر كثيراً في الكتاب المقدس، غير أن أهم ما في اسمها هو أنه، في اليونانية (بيبلوس)، تماهى مع الكتاب. فصارت جبيل مدينة الكتاب. ولما أرادوا اسماً للوحي الإلهي، ربطوه مع «بيبلوس»، وقالوا : «بيبليا». وهكذا ارتبط الكتاب المقدس في لغات العالم بمدينة استعملت الورق البردي وتاجرت به، ودوّنت أموراً تلف معظمها، سوى ما انتقل إلى العالم في كتب اليونان والرومان.

مراجع مختارة:

قسيس أنطوان، «الأرشيف المنسي في تاريخ لبنان القديم»، **دراسات**، ٢٦ (١٩٩٧) ١١٥–١٥٣.

قسيس أنطوان، «الزياحات والعبادات في الحضارة الكنعانية – الفينيقية»، **الزياحات والرتب الطقسية** (الكسليك ١٩٩٦) ٢٨–٤٣.

DUNAND M., *Byblos, son histoire, ses ruines, ses légendes* (Paris 1968).

DUNAND M., *Fouilles de Byblos, 1-5 (Paris,* 1937-1973).

JIDEJIAN N., *Byblos à travers les âges* (Beyrouth, 1977).

KASSIS A., *Approches aux cultures méditerranéennes des origines* (Communauté des universités méditerranéennes; projet: Culture méditerranéenne, n. 2; Bari, 1995; réimprimé au Liban, 1996).

MONTET P., *Byblos et l'Égypte* (Paris 1928-1929).

الخوري جان عزّام

مقدّمة

هذا النص المأخوذ من نشيد الأناشيد يشكّل وحدة أدبيّة متكاملة، وقد جرت العادة بربطه بالقصيدة اللاحقة (٤:٩ – ٥:٢). كما أنّه نال حظّاً وفيراً من شروحات الآباء والمفسّرين التي اختلفت في بعض معانيها، ولكنّها اجتمعت على صعوبة تفسير بعض الكلمات مثل: معي، عروس، مرابض الأسود، وجبال النمور...

هذه المقالة هي محاولة بسيطة لتفسير هذا النص من الناحية اللغويّة والأدبيّة، من جهة، ومن الناحية الرمزيّة واللاهوتيّة، من جهة أخرى.

١– شرح لغوي أدبي

منذ سنة ١٨٩٨، اعتبر أحد مفسّري سفر نشيد الأناشيد أنّ هذا النص (نش ٤:٨) موجود خارج إطاره، وليس مفهوماً ما كانت تفعل الحبيبة في الجبال بين النمور والأسود[١].

من جهة ثانية، يرد لقب عروس ستّة مرّات متتالية هنا وفي القصيدة التابعة فقط (٤:٩ – ٥:٢)، حيث يدعو الحبيب محبوبته لكي تخرج من تلك الجبال العالية من لبنان، وتأتي معه إلى جنّته حيث يعيشان معاً في الحبّ والسلام. والكلمة التي تعني عروس في العبريّة هي «كَلَّهْ» (כַּלָּה)، وهي تعني أيضاً لقباً شريفاً للحبيبة يدلّ على انتسابها إلى أصل ملكيّ شريف[٢]. وهذا ما يفسّر وجود هذا اللقب هنا فقط في سفر نشيد الأناشيد، في القصيدة المعروفة بـ «قصائد لبنان» (٤:٨–٥:٢)، أيّ أنّ العروس هي على الأرجح أميرة لبنانيّة.

أمّا كلمة «معي» فهي ذات دلالة كبيرة، وإن تكن تشكّل صعوبة كبيرة لفهم النص. فالترجمة السبعينيّة بدّلت كلمة «إتّي» (אִתִּי) العبريّة، وتعني «معي»، بكلمة "Deuro" اليونانيّة التي تقابلها كلمة «إتي» (אֵתִי) العبريّة، وتعني «تعالي». وهذا التعديل غير ضروري بحسب رأيي، لأنّ النص العبري فيه موازاة شعريّة ولغويّة كاملة قائمة على ترداد لفظة «معي» مرّتين في بداية كل شطر، فتتبعها كلمة «من لبنان» أيضاً في الشطرين، ثمّ الفاعل «أيّتها العروس» في نهاية الشطر الأوّل، وفعل «ستأتين» في نهاية الشطر الثاني. أمّا البيت الثاني فيبدأ بفعل «تنزلين» وهو موصول بالبيت الأوّل بطريقة التقاطع (Chiasme). ويتحكّم هذا الفعل بحرف الجرّ «من» والمرتبط بدوره بمكان في لبنان، هو جبل حرمون المعروف أيضاً عند اللبنانيّين القدماء باسم «سيريون» أو «سنير» أو «جبل أمانة» (نش ٣:٩). ولعلّ هذه الأسماء كلّها تشير إلى تلال مختلفة من جبل حرمون المعروف في أيّامنا باسم «جبل الشيخ». فالبيت الأوّل يحدّد إذاً المكان الذي ستخرج منه العروس أي «من لبنان»، والبيت الثاني يوضح أنّ هذا الخروج هو عمليّة «نزول» من جبال لبنان العالية التي يصفها بأنّها مربض الأسود وجبال النمور.

١– Cf. KEEL O., *Le Cantique des Cantiques* (Lectio Divina, Commentaires 6, Paris 1997) 169.

٢– *Ibidem*.

لبنان والبيبليا: دفقُ حُبٍّ وجمالٍ وخير

د. أنطوان خوري حرب

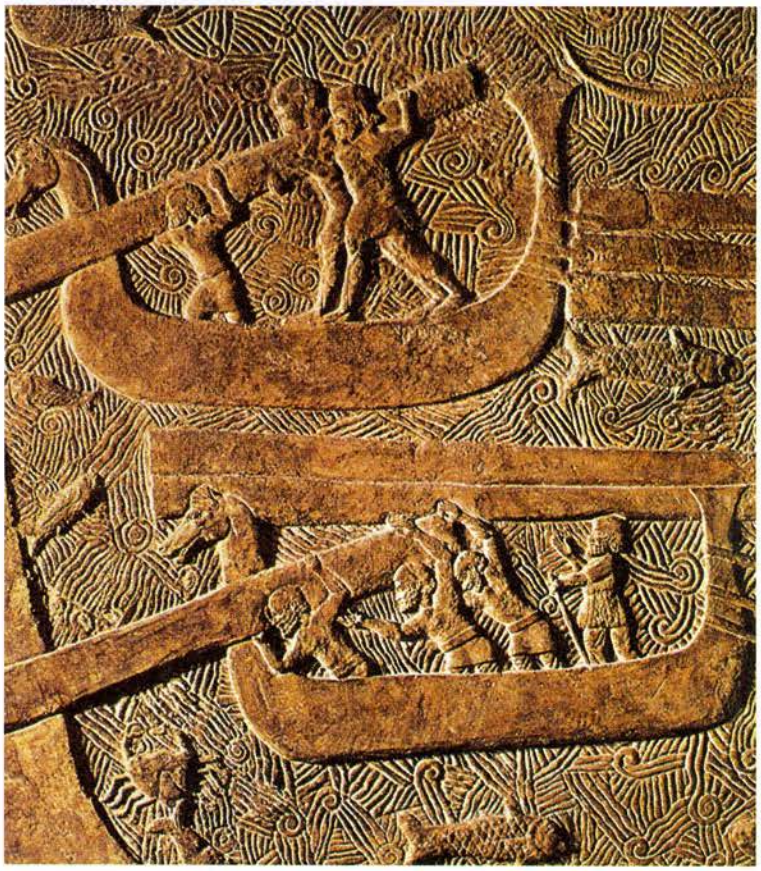

نقل خشب أرز لبنان
(رسم موجود في أحد قصور الأشوريين)

لقد ورد ذكر لبنان في الكتاب المقدس العهد القديم ٧٥ مرّة[١]. وما هو أهمّ من ذكره هو المناسبة التي كان يذكر فيها. فالمناسبة في معظم الأحيان نجدها تعبق بالمحبّة والإكبار والإجلال.

١ – تحديد «لبنان» في العهد القديم

يحدد الكتاب المقدس لبنان بأنّه الجبل، وامتداده الطبيعي، على الوجه التالي :

«... جميع الكنعانيّين والصيدونيّين والحويّين المقيمين بجبل لبنان، من جبل بعل حرمون الى مدخل حماة...» (قض ٣:٣).

هذا التحديد للبنان يتوافق الى حد كبير مع امتداد لبنان من الجنوب الى الشمال. فجبل حرمون هو الطرف الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية الذي يشرف على منخفض سهل الحولة في فلسطين. أمّا «مدخل حماة» فهو الفرجة الواقعة عند الطرف الشمالي من سلسلتي جبال لبنان الشرقيّة والغربيّة، المتوازيتين والمتساويتين، والتي تؤدي الى حمص

١ – راجع: خلف، القس غسّان، **لبنان في الكتاب المقدّس**، دار منهل الحياة، لبنان ١٩٨٥.
CORCKET, P., *Le Liban dans la Bible* (Franciscan Printing Press, Jerusalem) 1978.

وحماة، وكأنّها «مدخل» لهما من جهة البقاع.

٢ – «لبنان» جزء من «الأرض الموعودة»

بحسب وعد يهوه لكليمه موسى، وعبره لاسرائيل، شعبه المختار، يدّعي الكاتب التوراتي أنّ لبنان هو جزء من الأرض التي «أقسم الرب لابراهيم واسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم» (تث ١:٧–٨؛ رج ١١:٢٤).

ويسأل موسى إله إسرائيل أن يجعله يرى الأرض التي وعد شعبه بها: «دعني أجوز فأرى الأرض الصالحة التي في عبر الأردن، هذا الجبل الحسن ولبنان» (تث ٣:٢٥).

«لبنان»، في هذه القرينة، هو جبل حرمون الذي يظهر شامخاً عبر الأردن إلى الشمال.

وبعد وفاة موسى، تنتقل الزعامة الى يشوع بن نون، الذي عليه أن يقود بني اسرائيل، ويدخلهم الى الأرض التي وعد اللّه بها «شعبه المختار» (يش ١:١–٤).

ولمواجهة المطامع الآتية من الجنوب، جميع ملوك الأرض التي وعد إله إسرائيل شعبه بها، اعتصبوا لمقاومة الدخلاء (يش ٩:١–٢).

«لبنان» هنا أيضاً، هو جبل حرمون، وقد ورد في الترجمة السبعينيّة تحت اسم «أنتيليبانوس» (Antilibanos).

ويحاول يشوع أن يتغلّب على أعدائه، ويحتل ما أعطاه الرب من أرض، «من الجبل الأملس الممتد جهة سعير إلى بعل جاد في بقعة لبنان، تحت جبل حرمون...» (يش ١١:١٧؛ رج ١٢:٧؛ ١٣:١–٦؛ زك ١٠:١٠). «بقعة لبنان» هي حالياً وادي التيم الواقع تحت جبل حرمون، و«بعل جاد» هو بلدة حاصبيا، أشهر المدن الواقعة على سفح حرمون.

مدينة بابل العظيمة، وفي وسطها هيكل الاله مردوك

٣ – «أرز لبنان» في العهد القديم

اشتهر لبنان بغاباته، حتى أصبحت كلمة «لبنان» تعني في بعض الأحيان «الغابة». يشير النبي أشعيا إلى ذلك فيقول: «ولبنان غير كاف للوقود» (أش ٤٠:١٦).

ومن أهم أشجار غابات لبنان الأرز، فأضحى اسم الأرز مرادفاً لاسم لبنان، وارتبط به ارتباط النتيجة بالسبب[٢]. فما كان شجر الأرز ينمو لولا جبال لبنان العالية والمناخ البارد والمثلج. وبقدر ما نجد ذكراً للبنان في الكتاب المقدس بالقدر ذاته يذكر الأرز: «يا ساكنة لبنان المتخذة في الأرز عشها» (إر ٢٢:٢٣).

في سفر المزامير، يذكر أرز لبنان على أنه غرس الرب: «تروى أشجار الرب، أرز لبنان التي غرسها» (مز ١٠٣:١٦).

إنّ نظرة الإكبار والإجلال الى لبنان وأرزه عند كتّاب أسفار العهد القديم جعلتهم يحيطونه بكل احترام وتقديس، بحيث أنّهم نسبوه الى اللّه واعتبروه «غرس الرب».

وعندما تمتدح الحكمة نفسها تتشبّه بأرز لبنان: «ارتفعت كالأرز في لبنان» (يش ٢٤:١ و١٧).

كان لبنان وأرزه العالي عند أنبياء العهد القديم رمزاً للعظمة والمجد والتعالي. فسمعان بن أونيا الكاهن الأعظم، بحلّة مجده، يشبّه يشوع بأرز لبنان، وهو يقدّم الذبيحة محاطاً بجميع بني هارون (يش

٢– ورد ذكر الأرز في الكتاب المقدّس العهد القديم خمسٌ وسبعونَ مرّة، كما لبنان.

١٣:٥٠). والنبي إرميا بدوره يشبّه بيت ملك يهوذا بشموخ «رأس لبنان» (إر ٦:٢٢).

وفي قصّة الشجرات التي أرادت أن تمسح عليها ملكاً، نرى يوتان بن يربعل يهاجم أبيمالك، ومن خلاله النظام التسلطي الملكي، ويشبّهه بالأرز ملك الأشجار (قض ٩:١٤-١٥).

وحزقيال يشبّه فرعون مصر بعظمته، بأرزة من لبنان (حز ٣١:٢-٣). ولكن، بما أن الفرعون تشامخ وترفع، فإن الرب يسلمه إلى الموت ويسقطه كالأرز (حز ٣١:١٥؛ رج أش ١٠:٢٣-٣٤؛ مز ٣٧:٣٥).

لكن الرب يحطّ المعتزّ ويهوي به من عليائه، كما يحطّم أرز لبنان الشامخ، أي أنّه ما من طاغ متجبّر يستطيع أن يقف أمام اللّه ويواجهه (مز ٢٨:٥-٦).

هذه الآيات المقدّسة توحي بالوقار وتبرز لبنان وشموخ أرزه؛ أفليس الأرز هو «غرس الرب» (مز ١٠٣:١٦)، ولبنان هو «الجبل المقدس» (حز ٢٨:١٤)؟ أمّا الإدانة التي تتضمّنها هذه الآيات، فهي من نصيب الانسان المتألّه دون اللّه، والظالم والجشع.

لكن النبي زكريا يتنبأ بدمار قد يلحق لبنان وبنار تأكل أرزه، إن هو فتح أبوابه لكل لاجئ وغريب، «فتعشعش جميع طيور السماء في أغصان الأرز، وفي ظلّها تسكن جميع الأمم الكثيرة» (زك ١١:١-٢).

وصارت مفخرة الملوك في بناء القصور والهياكل أن يكون البناء والزخارف من خشب أرز لبنان ذي الصلابة المتينة والرائحة الذكيّة. واشتهر بصناعة الأرز الفنيّون من لبنان، فطلب سليمان بن داود من حيرام ملك صور[٣] أن يرسل اليه خشب الأرز والصنّاع ليبنوا له بيتاً (٢ أخ ٢:٨ و١١ و١٦).

وتصل أخشاب لبنان إلى أورشليم لبناء الهيكل: «مجد لبنان[٤] يأتي إليك» (أش ٦٠:١٣؛ رج ١ مل ٥:٥-١٤).

بالاضافة الى هيكل أورشليم بنى سليمان بيتاً له، دعي «بيت غابة لبنان» لكثرة الأعمدة التي استعملت فيه من خشب الأرز (١ مل ٧:١-٢؛ ١٠:١٦-١٧ و٢١؛ ٢ أخ ٩:١٥-١٦ و٢٠).

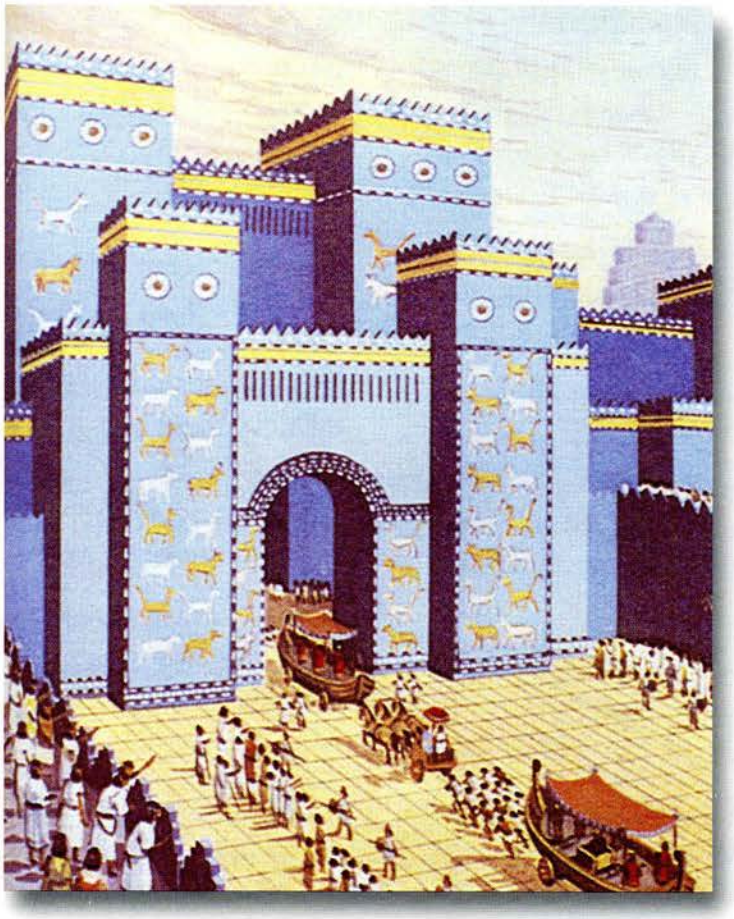

تطواف ديني إكراماً للاله مردوك، يلج بوابة عشتار للوصول الى المعبد

٣- يذكر المؤرّخ اليهودي يوسيفوس أنّ الرسائل المتبادلة بين سليمان وحيرام كانت محفوظة عند الصوريّين في سجلاّتهم العامّة:
JOSEPHUS, Fl., *Antiquités Judaïques*, Liv. VIII, ch. II, 7.

٤- إنّ «**مجدَ لبنان**» هو كناية تُشير إلى «**أرز لبنان**».

وكان «بيت غابة لبنان» يشكّل الجناح الأفخم في قصر الملك سليمان، وقد سمّي هكذا لأنّه مبنيّ بخشب أرز لبنان، جدراناً وأعمدة وسقفاً.

وكان عرش الملك سليمان أيضاً من خشب لبنان (نش ٣:٩).

وكان سليمان الحكيم يعرف جميع أنواع النباتات والأشجار. «فتكلم في الشجر من الأرز الذي على لبنان إلى الزوفى التي تخرج من الحائط» (١ مل ٤:٣٣). هذه المقابلة هي بين أضخم الأشجار وأقواها الذي هو الأرز، وأصغر النباتات وأضعفها التي هي الزوفى.

وطمع ملوك الشرق من مصريّين وآشوريّين وبابليّين وفرس بلبنان وبأخشاب أرزه. فالملك سنحاريب الأشوري (٧٠٥-٦٨٠ ق. م.) الذي صعد الى جبال لبنان قاطعاً أرزه، يتنبّأ له أشعيا النبي بالهزيمة والموت بسبب تجديفه على الرب وتعالي طموحه (أش ٣٧:٢٤؛ ٢ مل ١٩:٢٣).

وكان سنحاريب قد حاصر أورشليم وهدّد الملك حزقيا، بما معناه أن لبنان بجباله العالية وغاباته الكثيفة لم يعصَ عليه، فهل يستطيع هو أن يجابهه؟

كذلك فقد قمع سنحاريب ثورة دبّرها ملك صور «ايلو ايلي» بتشجيع من المصريّين، وطارده في البحر حتى قبرص، وعيّن الملك الأشوري ملك صيدا إيتوبعل ملكاً على فينيقيا بدلاً من ايلو ايلي. وقام سنحاريب بإحراق قصر ملك صور الصيفي في جبال لبنان وخرّب كرومه، ووصل الى غابات الأرز حيث هاجم قلعة هناك وأسر حُماتها[٥].

ويستعير النبي أشعيا من الجبال والسهول المحيطة وما تزخر به من أشجار، قرائن ليصف الحالة المزرية التي وصل اليها شعبه بسبب حملة الملك سنحاريب الأشوري الذي لم تنجح معه المفاوضات، فاكتسح البلاد ودمّر المدن وأهلك الناس.

ويشبّه النبي حزقيال الملك نبوخذ نصّر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ ق. م.) بالنسر العظيم الذي أتى الى لبنان، أي الى القصر الملكي في أورشليم، وقبض على الملك يواكيم، إذ «أخذ ناصية الأرز» وسباه الى بابل «مدينة التجّار» (حز ١٧:٣-٤).

وينزل النبي حبقوق الويلات على الفاتح الكلداني بسبب الظلم الذي ألحقه بلبنان (حب ٢:١٦-١٧).

وفي معرض الكلام على نبوخذ نصّر، يرد ذكر لبنان في سفر يهوديت، بمناسبة نداء وجهه الملك الكلداني الى سكّان البلاد الغربية، لكي ينضمّوا اليه في حروبه، لكنّهم يأبون (يهود ١: ٧ و١١).

والملك قورش الفارسي (حوالي ٥٥٦-٥٣٠ ق. م.) تصرّف بأرز لبنان، وكان يعطيه لمن يشاء (عز ٣:٧).

وكانت الغاية من جلب خشب الأرز إلى بحر يافا، ومن ثمّ الى أورشليم، تجديد بناء هيكل سليمان (بين ٥٣٨ و٥١٦ ق. م.)، الذي كان نبوخذ نصّر الثاني الكلداني قد هدمه سنة ٥٨٦ ق. م. وكانت جبال لبنان وغاباته خلال النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد خاضعة لإشراف ملوك فارس الذين كانوا يستنزفونه في مشاريعهم العمرانيّة.

وعند موت أحد الملوك المتسلّطين، تستريح كلّ الأرض وتسكن بعد أن عانت الظلم والاستغلال وتندفع بالترنيم: «حتى السرو وأرز لبنان يشمتان بك...» (أش ١٤:٨).

وعند سقوط فرعون مصر العظيم ترتعش الأمم، كما ذكر النبي حزقيال، وتتعزّى «أشجار عدن نخبة لبنان» لخلاصها من اليد التي كانت تقطعها (حز ٣١:١٦).

استغلّ اللّبنانيّون خشب الأرز لبناء السفن، فكانت لهم الأساطيل التي أثارت في الوقت نفسه إعجاب الأمم ومطامعها. وكان لأسطول مدينة صور شهرة كبيرة جعلها أعظم قوّة بحريّة في العالم القديم تجاريّاً وعسكريّاً (حز ٢٧:٣-٥).

٤ - لبنان الخصب والوحي والجمال والعطر

تغنّى الأنبياء بجمال لبنان، فقال سليمان في نشيد الأناشيد: «هلمّي معي من لبنان، أيّتها العروس، معي من لبنان» (نش ٤:٨).

وتصف العروس عريسها، فتقول: «طلعته كلبنان. هو مختار كالأرز» (نش ٥:١٥-١٦). وفي وصف العريس لعروسه، يقول: «عنقك كبرج من العاج، وأنفك كبرج لبنان الناظر إلى دمشق» (نش ٧:٤). و«برج لبنان» في هذه القرينة هو جبل حرمون الذي يطلّ على دمشق ويشرف على وادي التيم

٥- حتي، فيليب، **تاريخ لبنان**، ص ١٧٧.

والجولان، حتى سهل حوران وجبل الدروز الى الشرق، ومنطقة الجليل وجبال نابلس والبقاع اللبناني والجنوب. وعلى قمّة حرمون بقايا معبد قديم يسمّيه أبناء المنطقة قصر شبيب أو قصر عنتر. وكان من عادة اللبنانيّين – الفينيقيّين بناء معابدهم على رؤوس الجبال، ولا تزال آثار من تلك الهياكل أو المذابح قائمة حتى اليوم، حتى تكاد لا تخلو منها قمة من قمم لبنان العالية.

بالاضافة الى الجمال، أوحى لبنان الى الأذهان التي وضعت الكتاب المقدس المجد الذي هو مجد الرب:

«ستفرح البرية والقفر، وتبتهج البادية، وتزهر كالورد.

تزهر إزهاراً وتبتهج ابتهاجاً مع ترنيم.

قد أوتيت مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون» (أش ٣٥:١-٢).

وأوحى لبنان أيضاً بالروائح الذكيّة: «رائحة ثيابك كرائحة لبنان» (نش ٤:١١؛ رج هو ١٤:٧).

تجدر الإشارة إلى أنّ نبعين من ينابيع لبنان الجبلية يحملان اسم «نبع اللبن» و«نبع العسل» (هو ١٤:٧)، وينبعان في منطقة فاريا عند سفح المنيطرة–صنين.

«رائحة لبنان» هي في الواقع رائحة صموغ أشجار لبنان، منها الأرز والسرو والشربين والصنوبر. وشجرة «اللُبنى» المنتشرة في جبل لبنان، كان صمغها يستعمل بخوراً لتعطير الذبائح وللاستعمال في الطقوس الدينيّة.

ويذكر الكتاب المقدس خمر لبنان المعتّق، والذي أصبح مضرب المثل: «ويكون ذكره كخمر لبنان» (هو ١٤:٨).

وكان الشاعر الأوغاريتي[٦] قد تغنّى بخمر لبنان قبل النبي هوشع (القرن الثامن ق. م.) بحوالي ستمائة سنة بقوله: «خمرة حلوة، خمر سرنيم من بلد غال، خمر ممتاز من أعالي قمم لبنان، ن الطلّ ندّاه وايل حرثه».

وفي مجال وصفه لنبات لبنان ووحشه، يقول الكاتب التوراتي: «إن العوسج الذي بلبنان أرسل الى الأرز بلبنان وقال: زوّج ابنتك لابني. فجازت وحش الصحراء التي بلبنان ووطئت العوسج» (٢ مل ١٤:٩؛ ٢ أخ ٢٥:١٨).

ولا بد من أن يرد في الكتاب المقدس ذكر الثلج الأبيض الذي يغطّي لبنان ويدوم عاماً بعد عام والذي أعطى للبنان اسمه (إر ١٨:١٤).

لبنان «الأبيض» حوّل لبنان «أخضراً»، وتفجّرت من جوفه الينابيع وانسابت السواقي والأنهار شرايين حياة: «عين جنّات وبئر مياه حيّة وأنهار من لبنان» (نش ٤:١٥). خصب ونبات وغلال وافرة، وزهر وورد وزنبق... استعارات استعملها الكاتب التوراتي ليصف بها لبنان: «الجبال تموج كلبنان» (مز ٧٢:١٦)؛ «وأكون لإسرائيل كالندى، فيزهر كالسوسن، ويمد عروقه كلبنان» (هو ١٤:٦).

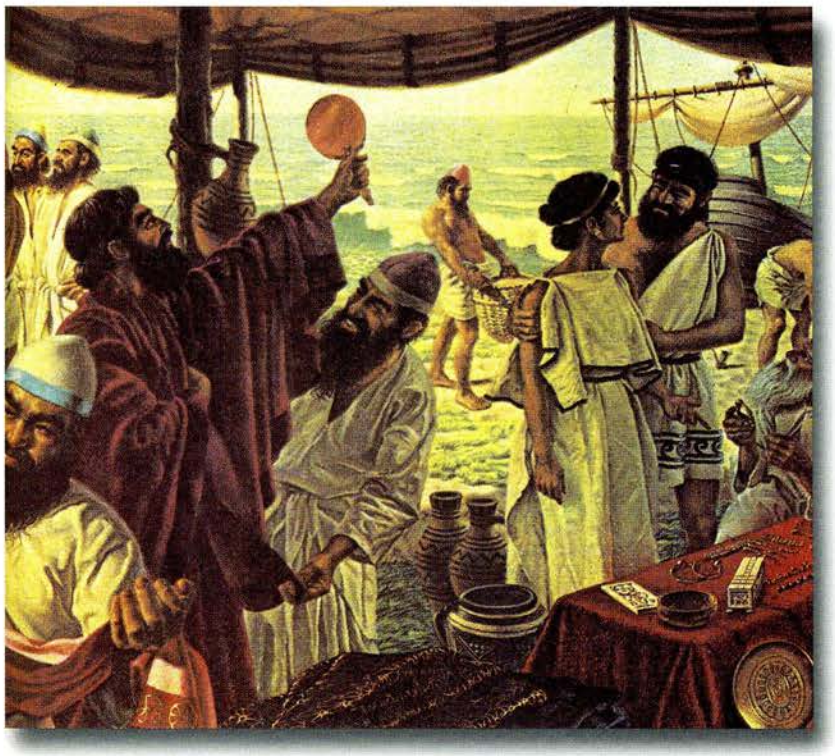

تجار من فينيقية

٦– فريحه، أنيس، **ملاحم وأساطير أوغاريت**، ص ٥٧٧.

عملة مملكة صيدون أيّام الفرس :
صورة مركب فينيقي ترمز الى القوّة البحريّة والى الاستقلال

صفد الموريكس لصناعة الأرجوان،
وجدت قرب مرفأي صور وصيدا بكميّات كبيرة

أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان إلى الكرمل ؟!

(أش ٢٩: ١٧)

الخوري نعمة اللّه الخوري

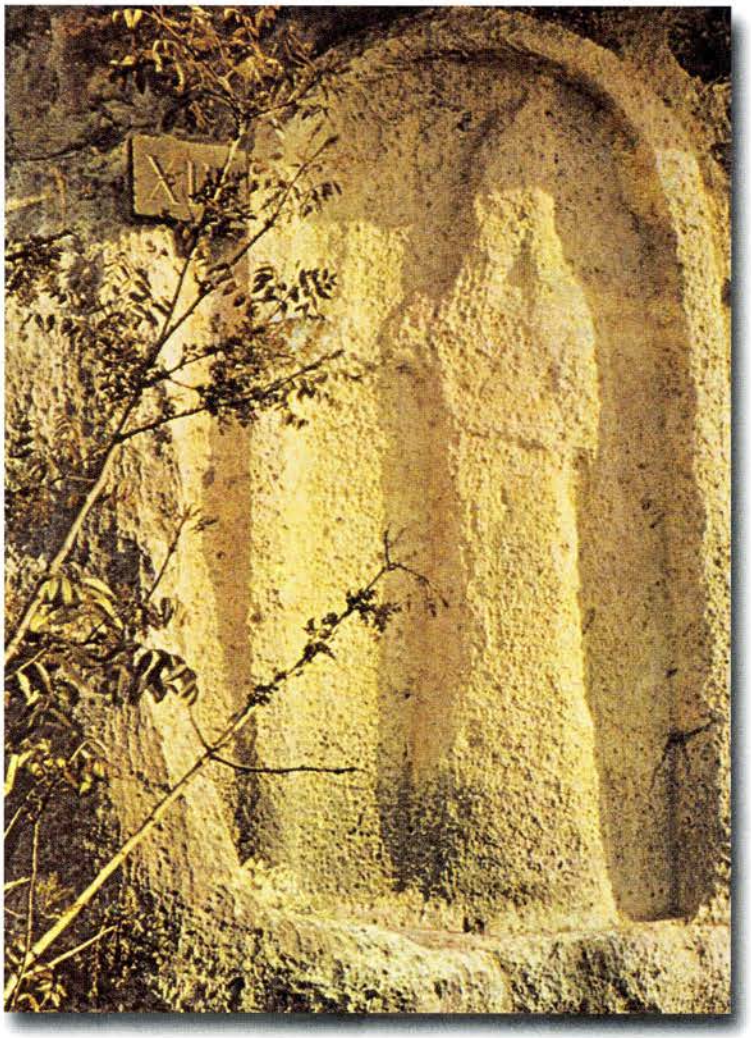

سنحاريب الملك : نقش على صخور نهر الكلب (لبنان)

مقدمة

تعوّد الأنبياء على الاستعانة بالتصرّفات الرمزيّة والأمثال والتشبيهات ليعبّروا عن كلامهم الموحى بأسلوب مليء بالصور الحيّة، وذلك لكي يستطيع عامة الشعب أن يفهموا بسهولة كلام اللّه. استعان أشعيا بطبيعة لبنان ليقول : «أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان الى الكرمل، والكرمل يُحسب وعراً؟» (أش ٢٩: ١٧). نجد في هذا القول النبوي مقارنة بين لبنان والكرمل اللّذين سيتغيّران بعد فترة وجيزة : سيتحوّل لبنان الى جنّة، في حين أن الكرمل سيتبدّل ويصبح مثل غابة. سنحاول أن نفهم السبب الذي دفع أشعيا إلى أن يستعين بتغيير واقع لبنان في سبيل تطبيق هذا التغيير على حياة مستمعيه.

أوّلاً : الحياة الاجتماعيّة في أيّام أشعيا

لا يمكننا أن نعزل الأقوال النبويّة عن المحيط الذي نشأت فيه، لأنّه من الضروري معرفة الظروف التي قيلت فيها هذه النبوءات. في أيّام أشعيا الذي تنبّأ بين الأعوام (٧٤٠-٧٠٠)، كان

المجتمع اليهودي يقسم الى فئتين: فئة الكتبة والحكماء والمستشارين الذين يعاونون الملك، وفئة الناس العاديّين الفقراء. اتكلت الطبقة الحاكمة على قوّة أشور لتُثبّت سلطتها في اليهوديّة، وأحياناً كانت هذه الطبقة تطلب العون من مصر؛ انتقد أشعيا هذه الطبقة الحاكمة، واعتبر أنّه لا يجب طلب العون من الأمم التي لا تعبد الإله الحقيقي، بل من الضروري أن يعير المسؤولون عن الشعب اهتمامهم الى مخطط اللّه الخلاصي، فهو الذي يُنجّي الشعب.

ثانياً : القول النبوي

«أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان الى الكرمل؟» (٢٩:١٥-٢٢)

في بداية هذا القول النبوي (آ ١٥-١٦) يهاجم أشعيا بعض المسؤولين في الطبقة الحاكمة، في حين أنّ التفاؤل والأمل يسيطران على الآيات اللاحقة (آ ١٧-٢٢) التي تعد المساكين بتغيير واقع حياتهم. من الضروري أن نعالج كل قسم من هذه الآيات على حدة لنفهم مضمونها التعليمي.

١ - التَّوَيُّلُ ضد المبتعدين عن اللّه (آ ١٥-١٦)

يتهجّم النبي على مجموعة صغيرة من المسؤولين وقادة الشعب الذين يجتمعون في غرفة مظلمة بعيداً عن أنظار الناس العاديّين. هؤلاء المسؤولين يخطّطون في الخفية، وهم يظنّون أنّهم يستطيعون أن يخفوا مخطّطاتهم عن اللّه (مز ٦٤:٣-٧؛ ٩٤:٧؛ ١٣٩:٧-١٢). يؤكّد أشعيا أنّ اللّه هو صانع كلّ شيء، فلا يستطيع المجبول أن يقول في جابله : لا عقل له (آ ١٦)؛ هذه المخطّطات ترتكز على مبدأ يعتبر أن اللّه لا يستطيع أن يُنقذ وينجّي، وهو لا يعلم خفايا الأمور. يحذّر أشعيا هذه المجموعة المتسلّطة بقوله : الويل لهم (آ ١٥)، ويؤكّد أنّ الوضع الحالي سيتغيّر؛ وهنا يستعين بطبيعة لبنان ليعبّر عن هذا التغيير في الآيات اللاحقة.

٢ - التفاؤل الموعود به للمختارين (آ ١٧-٢٢)

يعد أشعيا المساكين بتغيير واقع حياتهم في فترة وجيزة : الصمّ سيسمعون أقوال الكتاب، والعمي سيبصرون (آ ١٨)، البائسون والمساكين سيبتهجون (آ ١٩)، أمّا الأشرار والظالمون فسينقرضون (آ ٢٠). هذا التغيير في واقع حياة الناس يشرح معنى قول أشعيا النبوي : «أليس عمّا قليل يتحوّل لبنان الى الكرمل، والكرمل يُحسب وعراً؟» (آ ١٧)؛ ستتحوّل أرض لبنان الجبلية الوعرة الى أرض خصبة، وتصبح كالكرمل ذات البساتين الجميلة، أمّا الكرمل فسيتحوّل الى غابة. سيعود أشعيا الى الاستعانة بتغيير واقع الكرمل حين يقول : «قد أوتيت مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون» (أش ٣٥:٢). سيتحوّل لبنان الى الكرمل، أي الى نقيضه، وهذا يعني أنّ الأوضاع ستنقلب بين النبلاء والمتسلّطين من جهة، وبين المساكين والبائسين من جهة أخرى؛ هذا التغيير سيحدث في فترة وجيزة جدّاً، ولكنّ النبي لا يشير الى المهلة التي سيتحقق فيها هذا التغيير المُعلن.

يبدو أنّ أشعيا يشير في هذا المقطع الى ثلاثة أنواع من اليهود : اليهود الودعاء الفقراء والمساكين (آ ١٩)، واليهود العميان الذين لا يملكون المعرفة الحقيقيّة للكتب المقدّسة، ولكن يمكن إنارتهم (آ ١٨)، واليهود الظالمون الذين لا رجاء لتوبتهم. هناك صراع بين اليهود الأتقياء وبين اليهود الذين نسوا الشريعة : سيجد المؤمنون الأوفياء السعادة.

خاتمة

إنّ البؤس والشقاء اللذين يعاني منهما البائسون لم يدوما طويلاً، فاللّه يعد المختارين بتغيير واقع حياتهم؛ هذا يحضّرنا لنفهم قول يسوع لتلاميذه على الجبل : «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض» (مت ٥:٥). هكذا استعان أشعيا بطبيعة لبنان الجليلة ليعبّر عن ازدهار شعب اللّه المسكين واختفاء الظالمين والأشرار.

«ارتفعت كالأرز في لبنان»
(سي ٢٤/١٣)

الأخت باسمة الخوري

مقدمة

يعود سفر يشوع بن سيراخ الى حوالي السنة ١٩٠ ق. م.، وهو كتاب يعكس وضعاً ثقافيّاً واجتماعيّاً يتمثل بتعلق الكثيرين من اليهود بالحضارة الهلينستيّة، بحيث بدأوا يتساءلون حول جدوى التعلّق بالدين اليهودي، في حين أنّ الحكمة اليونانيّة قادرة على توفير السعادة الوافرة.

يأتي هذا السفر ليركز على هدفين اثنين: الأوّل، تأكيد على أنّ الحكمة اليهودية هي الحكمة الحقة، والثاني، تأكيد على أن الدين اليهودي يولد الفرح والسعادة. فالكاتب يعالج موضوعاً واحداً، هو الحكمة بكافة أبعادها: مصدرها، عيشها في الحياة اليوميّة، علاقتها بشريعة اللّه، الخ، بحيث نفهم أنّه يريد التأكيد أن لا حكمة إلاّ في اسرائيل.

سيراخ ٢٤: كلام حكيم في رمز الحكمة!

في قلب ما كتب بن سيراخ عن الحكمة، يأتي الفصل ٢٤، وهو خطاب تمتدح فيه الحكمة نفسها. يتألف هذا الفصل من مقدمة موجزة: «الحكمة تمتدح نفسها، وتفتخر بين شعبها، تفتح فمها في جماعة العلي، وتفتخر أمام قدرته» (سي ٢٤: ١-٢). تأخذ الحكمة بعدها الكلام (٢٤: ٣-٢٢)، ثمّ يفسّر ابن سيراخ الخطاب (٢٤: ٢٣-٢٩)، وتنهي الآيات ٣٠-٣٤ الفصل بوصف دور يشوع بن سيراخ.

إن الحكمة التي يصفها بن سيراخ تتكلم في الهيكل أثناء الصلاة الجماعيّة وأمام القدرة الإلهيّة. هنا فقط يستطيع الناس سماعها والتعرف اليها. إنّها حكمة دينيّة في جوهرها.

في سي ٢٤: ٣-٢٢ تخبر الحكمة قصتها بحسب جدول مكاني في خط عامودي ينطلق من السماء الى أرض اسرائيل: «من فم العلي خرجت... فتثبتت في صهيون إقامتي» (٢٤: ٣ و١٠)، وفي خط أفقي يجمع بين البحر واليابسة (٢٤: ٦)، بناء على تدخل اللّه أوّلاً وآخراً (٢٤: ٣ و٨)، وفي ذلك وصف لامتداد الحكمة المسكوني، بحيث تزور الكون كلّه كما يزورها مالكها. لكن سلطة هذه الحكمة لا تنبع من ذاتها بل من إرادة اللّه الذي أمرها بالاستقرار في اسرائيل (٢٤: ٨). تلك هي قصة أصل الحكمة النابعة من اللّه.

وتأتي الآية التاسعة لتنقلنا من المكان الى الزمان: «من البدء خلقني ومن الأزل، وأنا الى الأبد لا أزول». فيكون زمن الحكمة هذه أزليّاً أبديّاً، لا نعرف له بداية ولا نهاية. وهنا يأتي وصف الحكمة لذاتها وتوسعها الجغرافي. صحيح أن الحكمة هي العبادة الحقة، تخدم اللّه في هيكله، وقد استقرّت فيه، ومملكتها هي أورشليم (٢٤: ١٠)، لكنها ليست محدودة بهذه المدينة أو تلك، لأنها أكبر وأعظم من أن تحدّ بمكان. أمّا حجم عظمتها فتخبر عنه الحكمة في الآيات ١٣-١٧:

كالأرز في لبنان ارتفعت
كالسرو في جبال حرمون
كالنخل في عين جدي ارتفعت
وكغراس الورد في أريحا
كالزيتون النضير في السهل
وكالدلب ارتفعت

تؤلّف هاتان الآيتان مقطعاً واحداً مبنيّاً كالتالي: اسم الشجرة، اسم مكان، فعل واحد.

تردد الحكمة على ثلاث مراحل أنها **ارتفعت**، وتشبّه ارتفاعها بست شجرات. أمّا الشجرات الست فهي على التوالي: أرز لبنان، السرو، النخل، غراس الورد،

الزيتون والدلب، وجميعها شجرات مميزة بجمالها، عدا غرسة الورد المميزة على كل الأصعدة. وأمّا الأمكنة الخمس فهي على التوالي : لبنان، حرمون، عين جدي، أريحا، السهل، وهي – باستثناء لبنان – تشكل أطراف الأرض المقدسة. فحرمون هو حدود اسرائيل الشماليّة، وعين جدي وأريحا هما شرقها، في حين أن السهل هو غرب هذه الأرض. لقد ارتفعت الحكمة لتغطي كل أرض اسرائيل من أقصاها الى أقصاها. ولكن لماذا يشكل أرز لبنان استثناء في هذه اللائحة؟ ولماذا تبدأ هذه اللائحة للشجر والأمكنة بأرز لبنان؟

الأرز وعظمته في حزقيال ٣١:٣-٩

للاجابة على هذه الأسئلة يمكننا العودة الى النبي حزقيال ٣١:٣-٩ حيث نجد وصفاً دقيقاً لشجرة الأرز، تجعلنا نفهم سبب ادخالها في رأس قائمة الأشجار التي تفخر الحكمة بالتشبه بها. ففي معرض وصفه لعظمة فرعون مصر الخياليّة، يشبهّه الرب **بأرزة في لبنان**: «بماذا أشبهك في عظمتك؟ أشبهك **بأرزة في لبنان**» (حز ٣١:٣)؛ فنفهم بالتالي كيف أنه لا يجوز تشبيه العظمة ذاتها الا بهذه الشجرة الكاملة الصفات، حتى أن القديس نفسه يمكنه أن يتأمّل بأن تكون العظمة من نصيبه، «مثل أرز لبنان ينمو» (مز ٩٢:١٣).

بالعودة إلى الحكمة التي تمدح ذاتها، نحن نرى أن الكاتب أراد إبراز ميزتين أساسيتين :

– العظمة : وهذا ما يجده في ميزات أرز لبنان.

– الشمولية انطلاقاً من أرض اسرائيل: وهذا ما يجده في العودة الى أهم أشجار اسرائيل المتواجدة في كل أرضها.

فلو اكتفى الكاتب بامتداح الحكمة لذاتها، من خلال التشبه بأشجار عظيمة تعرفها بلاد اسرائيل جيّداً، من شرقها الى غربها، ومن شمالها الى جنوبها، لكانت بقيت صفات عظمتها منقوصة. إن أرز لبنان هو مثال العظمة التي لا يضاهيها حتى «أرز جنّة اللّه»، هي التي تصل الى السماء (حز ٣١:٨)؛ لكنّها تتعدّى الجمال الخارجي، «جميلة الأغصان وارفة الظلال، عالية، رأسها بين الغيوم. المياه جعلتها تنمو، والينابيع أطالت قوامها» (حز ٣١:٣)، الى القوّة والسلطة على كلّ مثيلاتها، هي «التي شمخت فوق جميع أشجار الغابة» (حز ٣١:٥)، والتي «لا يماثلها في الحسن كل شجر في جنّة اللّه... فغارت منها جميع الأشجار في عدن، في جنّة اللّه» (حز ٣١:٨-٩). الى ذلك تحمّل أرزة لبنان مسؤوليّة كونيّة تشمل الطير والحيوان والانسان، «في أغصانها عششت كل طيور السماء، وتحت فروعها ولدت كل وحوش البريّة، وفي ظلها سكنت جميع الأمم العظيمة» (حز ٣١:٦)، والنبات أيضاً هو من مسؤوليتها: «وأجرت من حولها أنهاراً تفرّعت الى جداول تروي جميع أشجار الغابة» (٣١:٤).

إن نظرة الدهشة التي كان الشعب اليهودي ينظرها الى أرزة لبنان تجعلنا نفهم تشبيه الحكمة بهذه الشجرة، بحيث أنّه كان بإمكان الكاتب أن يكتفي بالقول إن الحكمة **ارتفعت كالأرز في لبنان**، لكنّه أراد تفسير ذلك لمن لا يعرف مدى عظمة شجرة الأرز التي «لا يتفوق عليها الأرز في جنّة اللّه» (حز ٣١:٨)، فأكمل «كالسرو والنخل والدلب وغراس الورد والزيتون والدلب»، وكأنّه بحاجة الى مجمل ارتفاع هذه الشجرات، والى مجموع مميزات أشجار اسرائيل، ليعادل ارتفاع أرز لبنان ومميزاته: «أين للسرو مثل أغصانها، وللدلب مثل فروعها؟» من هنا يمكننا تفضيل ترجمة جمعيّة الكتاب المقدس في لبنان التي تعتمد: «شمخت كأرزة في لبنان أو كسروة في جبل حرمون...» إن شموخ أرزة لبنان ليس شموخاً جماليّاً وحسب، بل شموخ صعود أمام نوائب الدهر، وشموخ من يتحمّل مسؤوليّة تجاه الكائنات التي تحيا في كنفها.

شموخ الحكمة كالأرز حسب سيراخ

إن ما تقدّم هو ما يشدد عليه ابن سيراخ في دفاعه عن الحكمة في تقليد اسرائيل وفي اظهار عظمة هذه الحكمة. فليس على اليهودي إذاً أن يخجل من حكمته، فيسعى وراء حكمة غريبة عن تراثه، بل أن يفتخر ويشمخ بحكمته التي تملك مواصفات أرزة لبنان، والتي امتدت الى كلّ أرض اسرائيل، بعدما أتت من لدن العلي الذي أمرها بالسكن في صهيون. هذه الحكمة ليست إلا تجلي اللّه لشعبه في أورشليم ومنها الى كل الأرض، وقد قام بهذه البادرة ليُحييَ الكون بأسره عاموديا وأفقياً كما أرزة من لبنان. فلا بأس إن شمخت حكمة ما، لأنها مهما علت ونمت، فهي لن تعادل بأي حال من الأحوال عظمة الحكمة الالهيّة وشموليتها؛ ولنا في ذلك مثل الشجر المميز الذي مهما علا وعظم يبقى بعيداً جداً عن شموخ وعظمة وصمود أرزة لبنان.

لقد رأت الليتورجيا في هذه الآية، «ارتفعت كالأرز في لبنان»، صورة العذراء مريم أم الحكمة الالهيّة، وقد سمّاها اللبنانيون أرزة لبنان.

مياه لبنان
دفقُ خيرٍ وبركةٍ وحياة

الأخت صونيا الغصين

مقدّمة

«في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خاوية خالية، وعلى وجه الغمر ظلام، وروح الله يرفرف على وجه المياه» (تك ١:١-٢). بهذه العبارات تبدأ سيرة الخلق الأولى في الكتاب المقدّس. وتتابع السيرة فتقول: «وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فكان كذلك... وسمّى الله الجلد سماء... وقال الله: لتجتمع المياه التي تحت السماء في مكان واحد، وليظهر اليبس. فكان كذلك. وسمّى الله اليبس أرضاً، وتجمُّعَ المياه سمّاه بحاراً...» (تك ١:٦-١٠). وهكذا نلاحظ بأن المياه عنصر أساسيّ في الخلق. إنها المخلوق الأوّل.

من جهة أخرى، العديد من الفلاسفة اليونان اعتبروا المياه إحدى عناصر الخلق الأساسيّة مع النار والهواء. من هذه العناصر الثلاثة خُلِق الكون وما فيه.

أهميّة المياه هذه تعود إلى ضرورتها في حياة الإنسان. لذلك دخلت المياه عالم الرموز العلمية والأدبية والشعرية، والقُدسيات اللاهوتية والليتورجية، والعادات والتقاليد الشعبية والاجتماعية... ومنذ ذلك الوقت أصبح للمياه رموزاً عدّة في حياة الإنسان.

تجدر الإشارة إلى أن رموز المياه عامّة تنطبق على مشتقّاته كافة: الثلج، الندى، المطر...

١- الرموز العامّة للمياه

أ- المياه هي البركة الإلهيّة

كثيرا ما شُبّه الله، في العهد القديم، بالمياه التي تُعطي الحياة. إرميا شبّهه بـ «ينبوع لمياه الحيّة» (إر ٢:١٣). المزمّر قال بأنّ اشتياق المؤمن إلى الله هو كاشتياق الأيّل إلى مجاري المياه (مز ٤٢:٢-٣)، وبأنّ الإنسان البعيد عن الله هو «كأرض قاحلة مجدبة لا ماء فيها» (مز ٦٣:٢). وفي نشيده إلى الله، قارن موسى بين تعليم الله وهطول المطر، وتقطّر الندى الذي يغلغل في نفس المؤمن، فيرويها ويحييها. إنّه «كالغيث على الكلأ وكالرذاذ على العشب» (تث ٣٢:١-٢).

ب- المياه هي الموت والدمار

«ورأى الربّ أنّ شرّ الإنسان قد كثُر على الأرض...» (تك ٦:٥)، فأمر الربّ نوحاً بأن يدخل السفينة مع عائلته وزوج من كلّ صنف من المخلوقات. «وكثُرت المياه جدّاً جدّاً على الأرض، فتغطّت جميع الجبال الشامخة...، فهلك كلّ ذي جسد يدبّ على الأرض... والناس كافّة، فمات كلّ من في أنفه نسمة حياة...» (تك ٧:١٧-٢٢). وهكذا فالمياه هنا هي وسيلة للموت ورمز له. وفي الخروج من مصر، أرض العبودية، فتح الربّ مياه البحر الأحمر ليمرّ بني إسرائيل، من ثمّ أعادها إلى طبيعتها، «فغطّت مراكب جيش فرعون كلّه...»، وقتلت جنوده (راجع خر ١٥:١٦-٣١). وفي العهد الجديد، للمياه هذا الرمز أيضاً. ففي رتبة المعمودية يُغطّس المعمود في المياه، رمزاً لموته عن الخطيئة ومشاركته في موت المسيح.

ج- الثلج رمز الطهارة والكمال

الثلج هو أحد مشتقات المياه. اقترن

مياه لبنان تتدفق أبداً من خير السماء

«ينبوع جناتٍ...، نابعٍ من لبنان» (نش ٤:١٥)

اسمه باللون الأبيض فأصبحا متلازمَين. ويُقال بالعاميّة: «أبيض مثل الثلج». اللون الأسود خالٍ من أيّ لون، بينما اللون الأبيض يجمع كلّ الألوان. لذلك يرمز إلى الكمال والطهارة والمطلق. من هنا كان المؤمنون يقدّمون للآلهة ذبائح حيوانية بيضاء اللون (حمامة بيضاء، خروف أبيض...). إنّه لون الفرح والسلام.

د- الندى

كثيراً ما يتكلّم الكتاب المقدّس عن «الندى الإلهي»، النعمة التي تُحيي الإنسان من الداخل. إنّه رمز لكلمة الربّ (راجع تث ٣٢) وللتجدّد (راجع أش ٢٦:١٩). فهو يعيد الحياة إلى العظام المَيتة (راجع حز ٣٧:١-١٤).

في ما يلي سنتطرّق، من خلال معالجة بعض الآيات، إلى رمزية مياه لبنان وثلجه ونداه، المذكورة في الكتاب المقدّس.

٢- عدد ٢٤:٦: «منبسطة كأودية وكجنّات على نهر، كعود ندٍّ غرسها الربّ، وكأرز على مياه».

خرج بلعام[1] إلى البريّة ليشكر الربّ على كلّ ما أنعم به على إسرائيل. فنظم

١- بلعام هو عرّاف من ضفاف الفرات يعترف بالربّ كإلهه ويبارك إسرائيل. لكن التقاليد المتأخرة تعدّه عدوّاً اضطّرته قدرة الله أن يبارك إسرائيل رغماً عنه.

قصيدة مدح فيها حالة هذا الشعب الذي تكاثر عدده وزاد غناه وتعاظمت قوّته. يستعمل بلعام صورة المياه الجارية في النهر التي ترمز إلى فيض الخير والبركات، وهي التي تغذّي الأرز النابت إلى جانبها، فتُعطيه القوّة.

الأرز هو أرز لبنان. والمياه الجارية هي نتيجة ذوبان الثلوج من على قمم الجبال، جبال لبنان. أرز لبنان القويّ، هو رمز لشعب إسرائيل الذي أصبح قويّاً لأن الربّ هو إلهه.

٣- إرميا ١٨: ١٤: «هل يخلو صخر القدير من ثلج لبنان، أم تنضب المياه الغريبة الباردة الجارية؟»

إرميا هو أحد أنبياء العهد القديم. عاش في القرن الخامس ق. م. إنّه ابن قرية عاش أهلها من الزراعة، لذلك أدرك جيّداً أهمية المياه في حياة الإنسان.

«قم وانزل إلى بيت الخزّاف، وهناك أُسمعك كلامي» (إر ١٨: ٢)، قال الربّ لإرميا. وإذ شاهد النبيّ الخزّاف يصنع من كلّ إبريق، يقع فيه عطل، إناءً آخر، قال له الربّ: أما أستطيع أن أصنع بكم كهذا الخزّاف، يا بيت إسرائيل؟!» (إر ١٨: ٦).

في الفصل ١٨ من نبوءة إرميا، يطلب الربّ من بني إسرائيل العودة عن طريقهم الشرّيرة (إر ١٨: ١١). ويذكّرهم بأنّه هو الربّ القدير الذي كان معهم طوال الوقت. في هذا الإطار يقول الربّ: «هل يخلو صخر القدير من ثلج لبنان، أم تنضب المياه الغريبة الباردة الجارية؟» إنّ ثلج لبنان هو الثلج الذي يكسو جبل حرمون، والذي يدوم طويلاً، وفي بعض الأحيان يبقى طوال السنة. في موسم الحصاد، كان شعب إسرائيل، القائم في فلسطين، يأتي بالثلج من جبل حرمون، ليضعه في مياه الشفة، فتصبح باردة تُنعش شاربها في أيّام الحرّ. وفي هذا الإطار يقول القديس إيرونيموس بأنّ ثلج حرمون كان يُباع في مدينة صور، حيث كان يشتريه الأغنياء لتبريد مياه الشفة. و«المياه الغريبة الباردة» هي المياه التي تجري من أعلى جبل حرمون عندما يبدأ الثلج بالذوبان. وهكذا فإن ثلج لبنان والمياه الجارية من جباله هي رمز إلى نِعَم الربّ التي أغدقها على شعب إسرائيل.

٤- المزمور ١٣٣: ٣

كُتِب هذا المزمور بعد العودة من المنفى. وهو من أصغر المزامير. يتناول موضوع الصِلات الأخويّة التي تربط الكهنة واللاويين في الهيكل وفي المدينة المقدّسة. ويوصي بالحياة المشتركة كونها هبة مقدّسة من الله، ثمرة حياة الإيمان الواحد المشترك. يتكلّم هذا المزمور على سكن الأخوة معاً (مز ١٣٣: ١) فيقول: «**هو كندى حرمون النّازل على جبال صهيون. هناك أوصى الربّ بالبركة والحياة للأبد**» (مز ١٣٣: ٣).

يقول «مَنّاتي» (Mannati) (أحد علماء الكتاب المقدّس) بأنّ الزيت والندى، في هذا المزمور، يرمزان إلى البركة الإلهيّة. يرمز الزيت إلى القوّة والطراوة، والندى إلى الخصب والحياة والجمال.

كما ينزل الندى على العشب فيعطيه الحياة، كذلك تنزل نعمة الربّ على شعب إسرائيل فتعطيه الحياة. شبّه المزمّر البركة الإلهيّة النّازلة على شعب إسرائيل في جبل صهيون، بالندى النّازل على جبل حرمون. بالطبع، إنّ الندى النّازل من حرمون لا يصل إلى جبال صهيون في أورشليم، إنّما هي صورة رمزية.

خاتمة

مهما تطوّرت البشريّة وعلومها واختراعاتها، تبقى المياه هي الحياة والموت في آن.

يمكن للإنسان تحمّل الجوع والبرد والتعب وغيرها مدّة من الزمن، لكن لا يمكنه تحمّل العطش طويلاً. فقد اخترع الإنسان وسائل للاستعاضة عن الأكل، لفترة، ووسائل متطوّرة للتدفئة، ومنشّطات لِتَخَطّي التعب، لكنّه لم يتمكن من الاستعاضة عن المياه بشيء. فالمياه هي الحياة له ولكلّ المخلوقات الحيوانيّة والنباتيّة.

يمكن للإنسان أن يركب غمار البحر والمحيطات والأنهر، للانتقال من مكان إلى آخر، متحدّياً صعوباتها، إلاّ أنّ خطرها يبقى محتملاً في أيّ وقت. إنّه خطر الغرق والموت.

وهكذا تستمرّ رموز المياه هيَ هيَ، منذ اليوم الأوّل للخلق وحتى اليوم الأخير ربّما. وستبقى مياهُ لبنانَ وثلجُه ونداه مصدرَ إلهامٍ للشعراء والأُدباء والهائمين بحبِّ اللهِ والغوصِ في سرّه القدّوس.

«لبنان يا قطعة سما!»

بعضٌ من رمزيّة جبال لبنان في البيبليا

أ. فادي أحمر

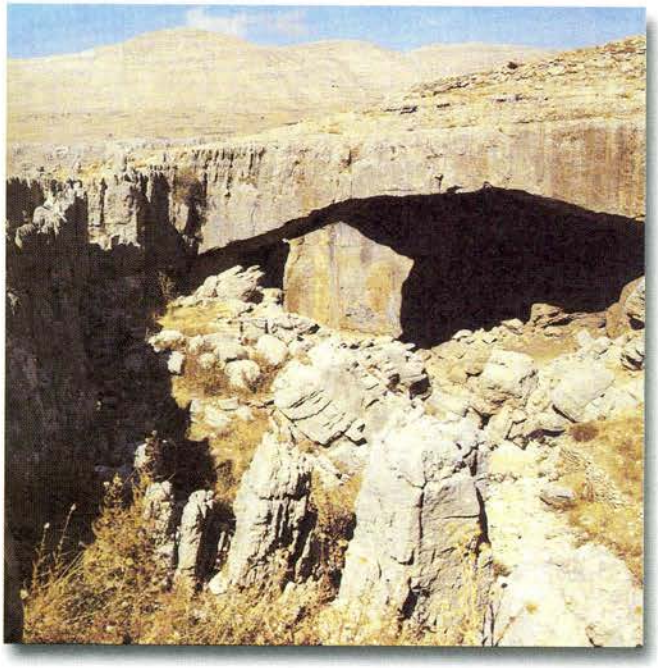

الجسر الطبيعي (جرود كسروان، لبنان)

مقدّمة

يتميّز لبنان بطبيعته الجبليّة، وبارتفاع جباله، ووعورتها، وتعدّد أشكالها وجمالها. هذه الطبيعة الجبليّة أعطت لبنان مناخاً معتدلاً يتميّز به عن المنطقة المحيطة به، وجعلته غنيّاً بثروة حرجية ومائية، طمح للحصول عليها العديد من جيرانه. كما سمحت للبنانيين بالصمود في وجه الغزوات التي كانت تأتي من الشرق والشمال والجنوب، وأحياناً من الغرب.

جمال طبيعة لبنان الجبليّة دفعت بالشعراء والأدباء والكتّاب إلى التغنّي بها. فأعطوها صوراً وتشابيه كثيرة. كذلك فعل شعب إسرائيل الذي تُطلّ عليه سلسلة جبال حرمون (جبل الشيخ)، العالية والمكلّلة بالثلوج غالبية السنة والغنيّة بالمياه، فذكرها مرّات عدّة في كتب العهد القديم وأعطاها رموزاً مختلفة.

جبال لبنان، ليست الوحيدة التي لها رموز. والكتاب المقدّس ليس الكتاب الوحيد الذي يعطي رموزاً معيّنة إلى الجبل. فغالبية الشعوب والحضارات أعطت الجبل رموزاً مختلفة دينية ودنيوية. وبذلك أصبح للجبل رموزاً عامّة نذكر بعضها.

١ – الرموز العامّة للجبل

– **نقطة التلاقي بين الأرض والسماء:** كونه أعلى نقطة على سطح الأرض. العديد من الحضارات تبنّت هذه الرمزية للجبل. فالحضارة الصينيّة، مثلاً، تعتقد بأن الأرض ترتكز على جبال أربع تمنعها من السقوط.

– **سُرّة الأرض (le nombril de la terre):** خاصّة بالنسبة للصوفيين. فإذا ما نظرنا إلى الجبل من فوق، فإنّه يظهر وكأنه النقطة المركز بالنسبة إلى الطبيعة التي تحيط به.

– **المكان المقدّس:** منذ القديم قدّس الإنسان كلّ مكان مرتفع. هكذا قدّس السماء واعتبرها مسكن الإله.

كذلك اعتبر الجبل، المكان الأكثر ارتفاعاً على سطح الأرض، مكاناً مقدّساً. لذلك يروي الكتاب المقدّس بأن الله ظهر لموسى على جبل حوريب حيث قال له: «إخلع نَعْلَيكَ من رجليك، لأن الموضع الذي انت واقف عليه أرض مقدّسة» (خر ٣:٥). وعلى «جبل مرتفع» تجلّى الربّ لتلاميذه، بطرس ويعقوب ويوحنا (راجع مر ٩:٢-١٣).

- **ارض العزلة والصلاة:** «ثمّ خرج يسوع فذهب على عادته إلى جبل الزيتون...» (لو ٢٢:٣٩) حيث صلّى مع تلاميذه قبل أن يُسلَم، على ما يروي لوقا الإنجيلي. الجبل هو عادةً مكان قفر، بينما السهل هو المكان المأهول بالسكان، وبالتالي، من أراد العزلة للتأمّل والصلاة، صعد الجبل ووجد فيه مبتغاه.
- **الجبل يرمز إلى الترقّي** والجبل الذي هو ارتفاع من مستوى معيّن على سطح الأرض إلى مستوى آخر، يعني ارتفاعاً في المستوى الروحي.

يرمز الجبل أيضاً إلى القوّة، لأنه شامخ في وجه عوامل الطبيعة كافة، وإلى الكبرياء، بسبب علوّه عن كلّ ما يحيط به، وإلى الفرح لأنّه أخضر، ومنه تفيض ينابيع المياه.

٢- المزمور ٨٩:١٣

يتكلّم هذا المزمور على «مراحم الربّ»، وعن الله «الرهيب، «العظيم»، المَهيب»، «إله القوّات»... يُعلن المزمّر محبة الله الأبديّة وإخلاصه الذي لا يتبدّل. فلأنّه إله محبّ، أبرم عهده مع شعب اسرائيل. ولأنّه إله مخلص، أقسم لعبده داود بأن يحفظ مُلكه إلى الأبد (راجع ٢ صم ٧:٨-١٦). فهو إله مخلص لعهوده.

ثم يركّز المزمّر على أحاديّة الربّ. فهو الإله خالق الكون، المتسلّط «على طغيان البحار» والذي يُسكّن «أمواجها عند ارتفاعها» (مز ٨٩:١٠). ويتابع مصلّياً للربّ فيقول: «لك السموات ولك الأرض أيضاً، أنت أسّست الدّنيا وما فيها. أنت خلقت الشّمال والجنوب، لاسمك يهلّل تابور وحرمون» (٨٩:١٢-١٣).

في الآية ١٣، الشمال والجنوب يرمزان إلى الشعوب التي كانت تقطن شمال اسرائيل وجنوبها. فذكر خلق الله للشّمال والجنوب يرمز إلى الانتصار على الشعوب الفينيقيّة والأشوريّة والأمّوريّة التي كانت تقطن شمال إسرائيل عند دخوله أرض الميعاد، والشعوب المصريّة-الفرعونيّة التي كانت تقطن جنوب أرض الميعاد-أرض إسرئيل.

أما تابور وحرمون، الجبلان اللذان يقعان شمال إسرائيل، فكانا مكانَي العبادة لدى الشعوب الكنعانيّة التي كانت مُعاديةً للشعب الإسرائيلي، ولا تعترف بالربّ.

ما هو جبل تابور؟ تابور هي تسميَة أوغاريتيّة، وتعني الحريّة، الإشراق. جغرافيّاً، إنه أحد جبال سلسلة الجبال المسمّاة في الكتاب المقدّس «أَنْتِي ليبان» (Anti-Liban). يقع شمال-شرق سهل يزراعيل، غربي نهر الأردن. يبلغ ارتفاعه ٥٦٢ م. إنّه جبل مقدّس. فَيَسَّاكَر وزبولون (وهما قبيلتان من شعب اسرائيل) كانتا تدعوان الشعب لتقديم الذبائح على هذا الجبل. ومن المحتمل بأن تكون تلك الذبائح أقرب إلى ذبائح الوثن منها إلى ذبائح الدين اليهودي، متأثّرةً بذبائح الفينيقيين الذين كانوا يقطنون تلك المنطقة.

من جهة أخرى، وبحسب إنجيل يعقوب المنحول، تجلّى يسوع لتلاميذه على جبل تابور (راجع متّى ١٧:١-٩). وحتى اليوم يحتفل المسيحيون بعيد التجلّي على هذا الجبل.

من هو جبل حرمون؟ حرمون تسميَة تُطلق على سلسلة جبال. بعض الباحثين يُعيدون تسميَة حرمون إلى كلمة «خرم»، العربية، التي تعني «قمة الجبل». والبعض يقول بأنه اسم مشتقّ من كلمة «حَرام» العربيّة، أو «حِرِمْ» العبريّة، والتي تعني «الشيء المقدّس».

كتاب التلمود اليهودي يسمّيه «جبل الثلج»، لأن الثلج يغطّي قممه فترة طويلة من السنة. الباحثون العرب استعملوا هذه التسمية. أما اليوم فيُسمى «جبل الشيخ»، للسبب عينه.

جغرافيّاً، تمتدّ سلسلة جبال حرمون بطول يبلغ ٣٠ كلم. فيه قمم ثلاث، يبلغ طول الأعلى بينها ٣٠٠٠م. منها يمكننا رؤية سلسلة جبال لبنان الغربية في الشمال، وإذا نظرنا شرقاً نرى سهل دمشق والصحراء السورية وجبل حوران في سوريا، وجنوباً بحيرات الحوله وطبريه ، وغرباً صور والبحر المتوسط. كما تنبع، من سلسلة جبال حرمون، عدّة ينابيع تسقي سهل دمشق وتغذّي نهر الأردن.

كانت العبادات الدينية كثيرة على هذا الجبل، خاصة عبادة الإله «بعل»، حتى أصبح يُعرف بـ «بعل حرمون».

في هذا المزمور ٨٩، تابور وحرمون، تلك الجبال المتمرّدة على عبادة الإله الحق، نجدها هنا تهلّل فرحاً بالربّ، الإله الحقّ، خالق السماوات والأرض،

الشمال والجنوب. إنّها اعتراف منها بأنّه الإله الحقّ، وهذا رمز إلى خضوع هذه الجبال العالية العاتية، للربّ لأنها صنع يديه.

٣- نشيد الأناشيد ٤:٨

منذ القديم كان نشيد الأناشيد موضوع جدل بين العلماء. البعض توقّف عند المعنى الحرفي له، فقبله كشعر غزليّ ورفضه كشعر دينيّ، والبعض الآخر غاص في رمزياته، فوضعه في مصاف أهمّ الكتب المقدّسة. في حرفيته يحكي هذا الكتاب قصة حبّ وحوار غزلي بين حبيب وحبيبته. أما في رمزيته فهو يحكي تاريخ شعب إسرائيل وعلاقته مع الربّ، في إطار شعريّ. في العهد الجديد، قبلته الكنيسة على أنّه يرمز إلى علاقة الحبّ بين المسيح وكنيسته.

في هذه الآية يدعو الحبيب حبيبته لتترك لبنان وتأتي إليه، «إلى جبل المرّ، إلى جبل البخور» (نش ٤:٦) في أورشليم. هذا ما تدلّ عليه كلمة «من»؛ فهي لا تعني هنا أن تأتي العروس إلى حبيبها عبر لبنان؛ ويُقصد بلبنان هنا سهل البقاع وسلسلة الجبال الشرقيّة (Anti-Liban).

يلحّ الحبيب في دعوة عروسه. هذا ما يدلّ عليه تكرار فعل «هلمّي». كما تجدر الإشارة إلى أن الشاعر يستعمل للمرة الأولى في هذا النشيد كملة «عروس»، ويكرّرها ٦ مرّات في هذه القصيدة. في القصائد السابقة كان يدعوها «حبيبة».

ماذا تعني كلمة عروس؟ بحسب العادات العبرية القديمة، الخطيبة هي الفتاة التي أُبرم معها عقد الزواج، ودفع العريس مهرها، فأصبحت عل اسمه. إلاّ أنّها لا تزال في منزلها الوالديّ لأن مراسم الزواج لم تتمّ بعد.

يدعو الحبيب عروسه لتترك «رأس أمانة، رأس سنير وحرمون». في اللغة العبرية فعل «ترك» («تشُوري») له معنيان: تَرَكَ أو نَظرَ وتأمّل. فالبعض من العلماء يعتمدون الثاني (مثل جمعية الكتاب المقدّس في الأوسط)، في حين أن الترجمة اليسوعية تعتمد المعنى الأوّل.

يعدّد الشاعر عدّة جبال: «رأس أمانة، رأس سنير، وحرمون». إن تعداد هذه الجبال معاً لا يعني بالضرورة وقوعها في منطقة جغرافية واحدة، أو أنّها تشكّل سلسلة جبال واحدة. إنّما المقصود هنا الجبال العالية في شمال اسرائيل والتي تشكّل خطراً عليها.

- **رأس أمانة:** البعض يقول بأنه جبل الزبداني في سوريا حيث ينبع نهر الأردن. وهناك عدد من العلماء لا يقولون بأنه جبلاً.
- **سنير:** بحسب تث ٣:٩، هي التسمية الأمّورية لجبل حرمون. وبحسب Driver، أحد علماء الكتاب المقدّس، «سنير» هو اسم المنطقة الشمالية من سلسلة جبال حرمون والتي تقع بين مدينتين بعلبك وحمص.
- **حرمون:** يتابع الشاعر كلامه فيقول بأن الحبيب يدعو عروسه لتأتي إليه «من مرابض الأسود، من جبال النمّور». **إلى مَ ترمز هذه الحيوانات في الكتاب المقدّس؟**
- **الأسد:** يرمز إلى القوّة. كثيراً ما شبّه الكتاب المقدّس الأشخاص أو الشعوب القويّة بالأسود (راجع هو ٥:١٤، وحز ١:١٠). أمّا هنا فالأسود القويّة تدلّ على الخطر المحدق بالعروس بوجودها في تلك الجبال، في لبنان.
- **النمور:** ترمز إلى الوحشية.

وبالتالي فإن جبال أمانة وسنير وحرمون تشكّل خطراً على العروس. لذلك يدعوها حبيبها ويلحّ في الدعوة.

يرى بعض العلماء بأن أساس هذا المشهد أسطورة كنعانية. في تلك الأسطورة يدعو أدونيس الإلهة اليونانية أفروديت (Aphrodite) لترافقه في رحلة صيد في جبال لبنان. وهناك يفترسه حيوان متوحّش.

في هذه القصيدة، المشهد معكوس. الحبيب يدعو حبيبته لتترك تلك الجبال الخطرة، خوفاً عليها، لتلاقيه في جبل المرّ وتلّ البخور، حيث الأمان والسلام.

هل فعلاً كانت الأسود والنمور تعيش في تلك الجبال؟

تفيد الدراسات التاريخيّة والبيبليّة بأن نهر الأردن كان مربضاً للأسود والنمور، وليس جبال أمانة وحرمون. من المحتمل أن يكون الشاعر قد استعمل هذه الصورة ليرمز بها إلى الخطر السياسي والعسكري والديني الذي كان يهدّد إسرائيل من تلك المنطقة، خاصّة وأنّها كانت ممرّاً لغزوات كثيرة عليها.

خاتمة

هذه كانت بعض من رموز جبال لبنان التي ذكرها الكتاب المقدّس في العهد القديم. لا ندّعي بأنّنا أحطنا الموضوع من كافة جوانبه. فالمسألة صعبة لعدّة أسباب: أوّلاً، لأنّ عالم الرموز واسع ومتشعّب جدّاً؛ ثانياً، لأن المراجع قليلة جدّاً في ما يخصّ رموز جبال لبنان؛ وثالثاً، والأهمّ، لأن الطبيعة هي لوحة الله الفنيّة. فكلّ إنسان ينظر إليها يمكنه أن يكتشف شيئاً جديداً في جمالها، لم يكتشفه أحد قبله. فجمال الخليقة من جمال الخالق. وكما أن جمال الخالق لا محدود، كذلك جمال خليقته.

الوادي المقدس:

هل كانت جنة عدن أكثر بهاء؟!!

رمزيّة لبنان وأرزه في حزقيّال ١٧

الشدياق فؤاد الطبش

عقد من الذهب يمثل عقاباً مفتوح الجناحَين ينتهيان برأسَي عقابَين، وجد في مدافن جبيل الملكية، لبنان

(متحف بيروت الوطني، لبنان)

مقدّمة

كَثُرَت الرموز في كتب العهد القديم، وكثر معها التركيز على فهم معناها، وذلك للوصول الى مغزى يساعد القارىء على استيعابها. من هذه الرموز، رمزَا الأرزة ولبنان اللذان كثر استعمالهما في كتاب حزقيال النبي.

لذا، ولفهم هذه الرمزية، لا بد من الرجوع الى الوضع الذي كان سائدا في المنطقة في أيّام حزقيال، وذلك لأننا لا نستطيع فهم شيء إذا كنّا غريبين عمّا كان يجري في تلك المنطقة. بعدها سننطلقُ من الفصل السابع عشر، فَنُبْرِزَ بُنْيَتَهُ، ونتكلّم على الصورة الموجودة فيه، لنصلَ في النهاية الى معرفة السبب الذي دفع الكاتب إلى الاستعانة بكلمتي «لبنان» و«الأرزة».

١. المنطقة في أيّام حزقيّال

في بداية رسالته النبويّة، لم يهتمّ حزقيال لما يحدث خارج حدود فلسطين، ولا حتى بالعلاقات التي تقوم بها أورشليم مع الدول المجاورة والصديقة.

وبالمقارنة مع إرميا النبي، نجد أن هذا الأخير كان يهتمّ بلا انقطاع بسياسة مصر، وانّه قام بحرب ضد التهديدات الخارجيّة. أما حزقيال فكان ينظر إلى المشاكل والى وضع إسرائيل من ناحية ضيّقة. ولكن في سنة ٥٨٧ نجد أن عَيْنَيْه انفتحتا فجأة على المشاكل الخارجيّة، فاكتشف الأمم، حَسَبَ مسؤوليّاتِهم، وبقي فترة شهور طوال مأخوذاً بأمورِهم.

كلّ مسألة الشرق كانت بين قوّتين، مصر من جهة، وبابل من جهة ثانية.

وكانت أورشليم هي نقطة الوسط بين هاتين القوّتين، وهي الطريق الوحيد الذي يربط المِنطَقَتين. فمن هنا نجد المشاكل الكبيرة التي تواجه هذه المملكة لكي تستطيع الصمود بين قوّتَين لا تنفكّان تتصارعان. فلذلك كانت هذه المملكة تتماوج فترة طويلة

بين هاتين القوّتين، وبقي الحال هكذا حتى نهاية القرن السابع.

ولكن المقاييس تغيّرت فجأة، والعملاق الأشوري هوى، والدليل على ذلك سقوط نينوى سنة ٦٠٩ ق. م.. وبقي الوضع على هذا الحال مدّة نصف قرن، حتى مجيء قورش الذي أقام الوحدة، وبالتالي حلّ التوازن بين ثلاثة هم: بابل، مَيدية وليدية. فكانت أورشليم الوحيدة من دون أي معين.

سنة ٦٠٩، قيّد الفرعون نَكوَ الملكَ يوآحاز، وأقام يوياقيم بن يوشيّا ملكاً مكان يوشيّا أبيه، وأخذ يوآحاز وأتى به إلى مصر، فمات هناك. فملك يوياكيم على يهوذا إلى أن هزم نبوكدنصر ملك مصر، فاستعبد يوياكيم ٣ سنوات، إلى أن قُتِل هذا الأخير، فملك مكانه ابنه يوياكين. ولكن بعد فترة من الزمن، قلع نبوكدنصّر يوياكين من الحكم ونفاه، بعد حصار المدينة، وعيّن مكانه صدقيّا، عمّ يوياكين، ملكاً بالوكالة.

سنة ٥٨٨ انقلب صدقيّا، وحاول القيام بمعاهدة مع الفرعون هُوفْرَع للتخلّص من سيطرة بابل، فحاصر نبوكدنصّر أورشليم، وقلع صدقيّا بالقوّة وغزا أورشليم سنة ٥٨٦.

من هنا نستطيع أن نفهم الوضع الذي كان سائداً؛ وهذه من الأمور التي تشغل كتاب النبي إرميا وكتابَي الملوك الأوّل والثاني.

مع ضياع الأمل بخلاص أورشليم ويهوذا، أطلق حزقيّال نبوءَته، داعياً إلى عدم وضع الأمل بملك أرضي، لانّ السلام لا يأتي من مصر.

وهنا تساءل قائلاً في ذاته: إذا مات يوياكيم وصدقيّا، فماذا يحلّ بسلالة داوود؟ وهل سيفي الله بوعده؟ فكان جوابه ما جاء في الفصل ١٧ كردٍّ على التساؤلات التي طُرِحَت.

إن العقاب العظيم، قد أتى لبنان	نبوكدنصر ملك بابل أتى إلى أورشليم
وأخذ ناصية الأرز	سلالة داوود الملك
واقتطع عالي أغصانه	نفى الملك يوياكين وحاشيته
وأتى بها إلى أرض تجار، ووضعها في مدينة تجار.	مدينة بابل
وأخذ من بذر الأرض	من نسل الملك: الملك صدقيا
وزرعها مكانها	أقامه ملكاً
لكي تصبح كرمة خصبة	لتكون مملكة، سلالة، متواضعة، لا تطمح.
تتّجه نحوه.	تحفظ عهده وتثبت
ولكن الكرمة اتّجهت نحو عقاب آخر عظيم	فرعون مصر
بحيث أنّ العقاب الأوّل العظيم قلع هذه الكرمة	قلع نبوكدنصر صدقيا من المملكة
ورماها إلى الفناء.	قتله

مجسّم من البرونز، من القرن السادس ق. م.، يمثل طائرين يحيطان بشخص ذات طابع إلهي، ويبدو فيه تأثير الفن الفينيقي، وجد قرب قادش في أسبانيا (متحف بيروت الوطني، لبنان)

٢. تقسيم الفصل ١٧ من حزقيّال

بما أنّ لا مُتَّسَعَ في هذه العجالة للتعمّق في أسباب تقسيم حز ١٧ وفقَ ما نقترح، فإنّنا نكتفي فقط بإبراز

أجزائه الثلاثة، وهي التالية:

أ. المثل: آ ١-١٠

ب. التفسير: آ ١١-٢١

ج. الوعد المسيحاني: آ ٢٢-٢٤

٣. النص ومضمونه

«إن العُقاب العظيم، قد أتى لبنان وأخذ ناصية الأرز، واقتطع عالي أغصانِه، وأتى بها إلى ارض تُجّار، ووضعها في مدينة تُجّار. وأخذ من بذر الأرض وزرعها مكانها لكي تصبح كرمة خصبة تتّجه نحوه. ولكنّ الكرمة اتجهت نحو عُقاب آخر عظيم، بحيث أن العُقاب الأول العظيم قلع هذه الكرمة ورماها إلى الفناء».

يأخذ الله على عاتقه غصناً من أعالي الأرز، الذي، بعد غرسه على جبل سيناء، يصبح شجرة أرز عملاقة تأوي فيها كل العصافير، وفيها يرى كلّ الشجر عمل الله، ممّا يعني أن الله سيصنع من نسل الملك أميراً قويّاً أو ملكاً قادراً، هو المسيح الذي سيؤسّس مملكة لكلّ العالم (العصافير والشجر هي رمز الأمم والسلالات الأخرى).

٤. استعمال كلمتَي «لبنان» و«الأرز»

بعد فهم الصورة وما ترمز إليه، نستطيع إقامة الشبه والكلام على السبب الذي دفع الكاتب إلى الاستعانة بـ «الأرز» و«لبنان» في حديثه عن أورشليم وعن سلالة داوود.

نجد في الآية الثالثة من الفصل السابع عشر كلمة «لبنان»، ونحن نعلم أن جبل لبنان كان مغطّى في ذلك الوقت بالأرز، وكان كلٌّ من مصر وإسرائيل وبلاد ما بين النهرين تستثمر الأرز، كما ورد في سفر الملوك الاوّل.

«وهاءنذا قد نويت ان أبني بيتاً لاسم الرب إلهي، كما كلّم الرب داوود أبي قائلاً: ان ابنك الذي أقيمه مكانك على عرشك هو يبني بيتاً لاسمي. والآن فمر بأن يُقطَعَ لي أرزٌ من لبنان، وخدّامي يكونون من خدامك، وأجرة خدّامك أؤدّيها اليك بحسب كل ما ترسم، لانك تعلم ان ليس فينا من يعرف بقطع الشجر مثل الصيدونيين ...» (١ مل ٥: ١٩-٢٨).

وفي أشعيا ٣٧: ٢٤: «على لسان عبيدك شتمت السيّد وقُلتُ: «بكثرة مركباتي صَعِدت الى رؤوس الجبال وإلى اقصى قمم لبنان، فقطعت أرفع أرزه وخيار سروه وبلغت الى مرتفعه الأقصى وإلى شجر جنّته...».

وفي الأدب البيبلي، يرمز أرز لبنان إلى العظمة والملوكيّة، كما ورد في سفر القضاة، حيث أردج الكاتبُ مَثَلَ يوتام، حول مسح شجرة من الأشجار ملكة، هي العوسجة أي ابيملك، وشبّه، بالمقابل، العائلة المالكة بشجر الأرز (قض ٩: ١٥).

٢ ملوك ١٤/٩: «فأرسل يوآش، ملك اسرائيل، الى أمصيا، ملك يهوذا، قائلاً: «إن الشوك الذي في لبنان أرسل الى الارز الذي في لبنان وقال: زوّج ابنتك لابني. فمرّ وحشُ الحقل الذي في لبنان وداس الشوك». كما نلاحظ، أنّه نفس المثل الوارد في سفر القضاة.

أشعيا ١٠/٣٣ ي: «هوذا السيد رب القوات يُقضّب الاغصان بعنف، فكلّ مرتفع القامة يُقطع، وكلٌّ شامخ يُحطّ».

نشيد الأناشيد ٥/١٥: «هو مختار كالأرز».

«أخذ من بزر الأرض... وغرسه،.. فنبت وصار كرمة» (حز ١٧: ٥-٦)

خاتمة

بما ان أورشليم تقع على جبل، وأحد المباني هو «**بيت غابة الأرز**» (١ مل ٧: ٢)، اي قصر سليمان، المسقوف بالأرز من فوق وعلى الأعمدة لاطات من الأرز، فن الممكن أن يكون هذا المرجع إلى السلالة الداوديّة، مثل لبنان، كما هو الحال هنا.

بالتالي، نجد الشبه الذي كتب عنه حزقيّال، إذ إن لبنان يعلوه الأرز، وأورشليم مبنيٌّ عليها قصر سليمان، فكان الرمز إلى أورشليم على أنها لبنان.

وسلالة داوود الملك هي الأرز الذي يعلو ويغطّي أورشليم. لذا كانت المقارنة أيضا بين الأرز والكرمة، بين الحجم والكبر والصلابة والصمود والشموخ.

لذا، يصنع الرب من نسل داوود شجرة، أي سلالة، لا تستطيع أي سلالة أخرى إلا أن ترى فيها عمل الربّ.

هذه السلالة، تضمّ كل العصافير، أي كلّ الأمم، ومن هنا شموليّة الخلاص.

رموزيّة الأرز في حزقيال ٣١

الخوري داني افرام

١- مقدّمة

في بادئ الأمر، وقبل أن نبدأ بالغوص في تفسير وشرح نص حزقيال أو رموزيّة الأرزة في حز ٣١، ينبغي لنا أن نبدأ بشرح بعض المعاني أو المفاهيم حتّى نستطيع بعد ذلك الغوص بشكل أوفر في النص.

السؤال الذي لا بدّ منه هو: ماذا يُقْصَدُ بكلمة رمز أو رموزيّة؟ بالفرنسيّة Symbolisme، هذه الكلمة المنحدرة من الأصل اليوناني "Symbolum"، ترجمتها العربيّة «الرموزيّة»، والتي تعني: ربط ما بين شيئين أو حقيقتين، الواحدة محسوسة ومكشوفة، والأخرى مستترة.

فهذه الطريقة بالتعبير هي طريقة من طرق الكتاب المقدّس، أو طريقة لشرح حقائق إيمانيّة، ولكن بطريقة رمزيّة، من دون أن نشوّه المعنى الحقيقي، والأمثلة على ذلك كثيرة.

٢- الإطار التاريخي

لنبدأ إذاً بوضع الإطار التاريخي الذي عايشه النبي حزقيال. سنتوقّف بعض الشيء عند شخصيّة هذا النبي وكتابه، لنصل بعد ذلك إلى موضوعنا الذي هو شرح رموزيّة الأرزة في الفصل ٣١ من كتاب حزقيال.

حزقيال هو أحد أبناء إسرائيل الذي مارس مهامه في أورشليم وبابل في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، في عصر أحد الملوك البابليين الكبار، نبوكدنصر، الذي غزا القسم الأكبر من جنوب آسيا؛ وهكذا، ففي سنة ٥٨٧، دمّرت مدينة أورشليم بعد أن قاومته.

وحزقيال الذي كان معاصراً لنبوكدنصر، والذي كان في بداية مهمّته النبويّة لا يكترث للمشاكل الخارجيّة، ولكن بعد سنة ٥٨٧ تفتّحت عيناه على كل الأمور والمصاعب، وخصوصاً تلك التي أتت من الخارج.

وهكذا نرى بأنّ تاريخ المنطقة السياسيّة كان مقسوماً بين قوّتين كبيرتين، مصر من جهة، وبابل من جهة أخرى.

ولكن، من دون أن ندخل في التفاصيل التاريخيّة، يمكننا أن نوجز بأنّ الوضع التاريخي الذي عايشه حزقيال هو من أصعب الأوقات وأحرجها التي مرّ بها شعب العهد القديم؛ فالسبي وإحراق الهيكل وأحداث أخرى أدّت إلى تكوين كتاب حزقيال وشخصيّته ورؤيته للأمور وللأحداث التي ستعصف بشعب الله.

من هنا نرى اسم حزقيال، ومعناه «الله هو القوي»، أو «ليشدّد الله». وحياته التي لا نعرف إلاّ القليل عنها، فقد كان متزوّجاً، ومن ثمّ خسر امرأته في الوقت الذي أخذت فيه مدينة أورشليم.

برزت شخصيّته القويّة والمتعصّبة، لذلك نراه شديد اللهجة والصور والعبارات التي ستساعد بعد ذلك الشعب في رفع معنويّاته وقوّته لإرجاع الرجاء إلى قلوب المؤمنين، بالله القوي الجبار.

فحزقيال هو أوّل من أعطى عن يهوه صورة في العالم، بمعنى آخر مستقل عن الهيكل. كما استطاع أن يعطي صوراً لله ملك السموات؛ فعنده نرى شموليّة جغرافيّة، وهي الأولى نحو الصورة الرؤيويّة.

٣- حزقيال ٣١

يتضمّن البحثُ ثلاثة نقاط، هي التالية:

- **أوّلاً**: ما هي الأقسام العامّة في فصل ٣١ من حزقيال؟
- **ثانياً**: ما هو معنى الأرزة ورمزيّتها اللاهوتيّة؟
- **ثالثاً**: شرح لبعض آيات الفصل ٣١.

سنتوقّف الآن عند الإجابة على هذه الأسئلة لنضفي بعض المعلومات والآراء للتأمّل والصلاة في هذا الفصل عن سفر حزقيال النبي.

أوّلاً: ينقسم الفصل ٣١ من كتاب حزقيال إلى قسمين:

١- آ ١ إلى آ ٩

القسم الأوّل من هذا الفصل هو شعر حزقيال الذي يعرّف بفرعون وحاشيته مثل شجرة حياة كبيرة أو شجرة العالم، عالية فوق الغيوم، ومثمرة. هذه الشجرة التي يعشعش في أغصانها جميع أنواع الطيور، وفي أوراقها تستريح جميع الحيوانات المتوحّشة، وفي ظلّها تعيش جميع الكائنات.

٢- آ ١٠ إلى آ ١٨

القسم الثاني يركّز على سقوط هذه الشجرة، وذلك بسبب تكبّرها، وهي تنقسم إلى قسمين:

- آ ١٠ إلى آ ١٤
- آ ١٥ إلى آ ١٨

ثانياً: ما هو معنى الأرزة وما هو رمزها؟

الأرزة أوّلاً هي شجرة مشهورة ومعروفة في لبنان، وخصوصاً في الكتاب المقدّس، إذ إن أوّل هيكل لسليمان صنع من خشبها. فهي شجرة يصل طولها حوالي ٣٠ م وأغصانها وفروعها عملاقة تصلح لأن تكون ملجأً ومسكناً لمن يلوذ إليها من الحيوانات. أوراقها كالإبر الخضراء ولمّاعة، يبلغ طولها حوالي ٢،٥ سنتم.

أرز قبرص هو من أصناف أرز لبنان. وأرز الأطلس هو من العائلة نفسها. أمّا أرز هملايا فهو مستعمل كثيراً في تجارة الخشب في الهند[١].

ولكن ما هو الرمز اللاهوتي للأرزة؟

قارن حزقيال فرعون وشبّهه بالأرزة، وذلك لأنّ هناك تقليداً قديماً في آسيا يعطي ميزة مقدّسة للأرز الجميل سكنى الله. فسقوط هذه الأرزة العملاقة يرمز إلى سقوط الكبرياء والمتكبّرين في هذا العالم. فمصر الأرزة الكبيرة في حز ٣١: ١-٩، لا وجود حقيقيّاً لها في الطبيعة إلاّ في الأسطورة الأشوريّة؛ فالشجرة المقدّسة هي أرزة كبيرة، أو نستطيع أن نتكلّم على شجرتَين من الأرز موجودتَين الواحدة والأخرى على مدخل المعبد في سرجون.

إذا قرأنا هذا الفصل يخيّل لنا في بادئ الأمر أنّه يصف شجرة لبنان، ولكن الكاتب يتوسّع ليضع تفاصيل وصفات أكبر من المعقول ومن الأشجار الطبيعيّة، فبذلك يصف الشجرة العملاقة أو شجرة العالم العملاقة التي تعلو رأسها الغيوم وجذورها تتعمّق في أعماق الأرض، فتصبح بذلك ملجأ كل حي في الكون.

كذلك في الميتولوجية السومريّة، تسمّي قصّة الخلق «جلجاش» شجرة موجودة على ضفاف الفرات وفي حديقتها المقدّسة والتي كبرت بطريقة لا أحد يستطيع أن يقطعها بسبب الحيّة الخطرة الموجودة على قاعدتها... وأيضاً الميتولوجية الألمانيّة تصف شجرة العالم العملاقة كمدافعة عن الجماعة.

أراد حزقيال في هذا الفصل أن يقارن ما بين أرز لبنان وفرعون الذي يرمز إليه بأرزة عملاقة تعني كبرياءه، ولأنّ فرعون متكبّر فنبوكدنصر سيهدمه.

لنتوقّف الآن عند بعض الآيات لندرسها ونستخلص العبر والمعاني منها.

ففي الآية الأولى نرى تحديداً للوقت؛ فالبنسبة لـ Parker du Bertémy، هو ٢١ حزيران ٥٨٧، وبذلك، وقبل البدء بعرض كلمة الربّ، يقوم حزقيال بتحديد التاريخ. ومن ثمّ وفي الآية الثانية، هو الربّ مَنْ يتكلّم، فيدعو النبيّ «ابن الإنسان»، فالنبي أصبح «ابن الإنسان»، ومهمّته أن يتكلّم إلى فرعون وكل جمهوره. والملفت هو أنّ النبي لا يبحث عن صورة صحيحة، ولكنّه يبالغ بكبر وعظمة فرعون؛ وبالرغم من عظمته، فالربّ قادر على أن يبدّد عظمته ويحطّه عن كل قصد وراءه. ويبدأ حزقيال بإعطاء صورة الأرزة، وخصوصاً كما ذكرنا سابقاً ما تحمله في طيّاتها من معاني ورموز، فلسنا بحاجة لشرح معنى الأرزة وخصوصاً لسكّان هذه المنطقة في العالم. نمو الأرزة ناتج عن المياه التي ترويها. فعمق المياه وغزارتها يؤدّيان إلى نمو الأرزة، فتعلو الأمم والغيوم، لأن كلّ ما يريده حزقيال في هذا القسم من الفصل هو التركيز على النموّ غير الطبيعي والعملاق للشجرة، لكي يصير بعد حين إلى التركيز على دمارها، لأنّه لا كبير عند الربّ الإله.

وبالرغم من أنّ ضخامة فروعها

١- «الأرزة» في: *Encyclopédie Encata 98*.

وأغصانها تفيد البشريّة، فجميع الكائنات تلتجئ لتحتمي في ظلّها وطيّاتها. والكبر، كما ذكرنا سالفاً، ناتج عن المياه التي تستقي منها، وجذورها التي تغوص في قعر الأرض، حتّى أصبحت أجمل شجرة على وجه الكون. من هنا، فجميع الشجر أصبحت تحسدها وتتطلّع عليها، وكأنّها أصبحت مكتفية في ذاتها، وأصبحت تتكبّر على جميع من يدنون منها.

فهذا الكبرياء هو السبب الأوّل والأخير حتّى يقصيها الربّ ويبدأ بتحطيمها.

أليس الكبرياء هو السبب أو هو الداعي للخطيئة الأولى التي اقترفها آدم وحواء في الفردوس؟ فكما كان نمو الأرزة عظيماً، هكذا سيكون سقوطها أعظم؛ ففي الآية الحادية عشر سيسلّم الربّ أمرها إلى البرابرة وإلى جبّار الأمم المعروف بنبوكدنصر، وهو سيتولّى إبادتها، وكل مجدها سينقلب ذلاً؛ وكما كان ارتفاعها إلى الأعالي، هكذا سيكون سقوطها إلى الأرض السفلى ٣١:١٤.

وكل من استفاد بشيء من هذه الشجرة، كذلك سيكون مصيره الفناء معها.

فحزقيال يصوّر سقوط الشجرة العظيمة بصورة رائعة مليئة برموز لا مثيل لها، تُضفي على النصّ غِنى في المعاني والواقع.

إنّ هذا الفصل يحدّد ويكمّل الصورة التي يعرضها لنا حزقيال حول موضوع الكبرياء؛ فالنبي يحدّد عمق أو أساس الخطيئة التي ترتكز على كبرياء القلب وانتفاخه وحبّه لذاته.

ولكن المشكلة التي يواجهها فرعون في هذا المقطع ليس فقط بالصورة التي يضعها لنفسه، ولكن أكثر من ذلك بالصورة التي أضفاها عليه الآخرون، فأصبح موضوع حسد جميع شعوب الأرض، وأصبح ملجأً ومعيناً لكثيرين. من هنا، فالإنسان الذي هو مخلوق وليس خالقاً، فإنّه ليس إلهاً رغم كلّ عظمته، ويجب عليه بالتالي على الدوام أن لا يستقل ويستغني عن الله.

فالويل لمن تعالى أمام الله، لأنّه لا ينزله فقط من مقامه، ولكنّه قد يحطّمه ويجعله مع الهابطين في الجب (٣١:١٤).

فالشرّ مع حزقيال، كما سبق ورأينا، ليس له فقط أبعاد كونيّة، بل أيضاً بُعد إنساني مصدره كل شخص يرتكبه.

ألا نرى هذه الحقيقة في نشيد مريم عند الإنجيلي لوقا: «تعظّم نفسي وتبتهج روحي بالله مخلّصي...» فشتّت المتكبّرين في قلوبهم، حطّ الأقوياء عن العروش ورفع الوضعاء (لو ١:٥١-٥٢).

راجع:

ALONSO - ACHOEKEL. & SICRE DIAZJ .L., *I profeti,* traduzione e commento (Borla 1989).

AUVRAY PAUL, *Ezéchiel,* Cerf, coll. Témoins de Dieu, Vienne 1947.

Ezéchiel, Collection Connaître la Bible, Desclée de Brouwer, Paris 1960.

H. CARLEY, *The Book of the Prophet Ezekiel,* (ed. The Cambridge Bible commentary, Great Britain 1974.

JOHN WIWEVERS, *New Century Bible, Ezekiel,* Nelson.

L. MONLOUBOU, *Un prêtre devient prophète: Ezéchiel,* coll. Lectio divina, éd. Cerf, Paris 1972.

L. STEINMANN, *Ezéchiel,* connaître la bible, D.D.B., Paris 1959.

WALTHER ZIMMERLLI, *A Commentary on the Book of the Prophet Ezekiel* (Paul Hanson, U.S.A. 1993).

وادي لبنان

سهل الخيرات والعبور واللقاء!

الخوري بولس الفغالي

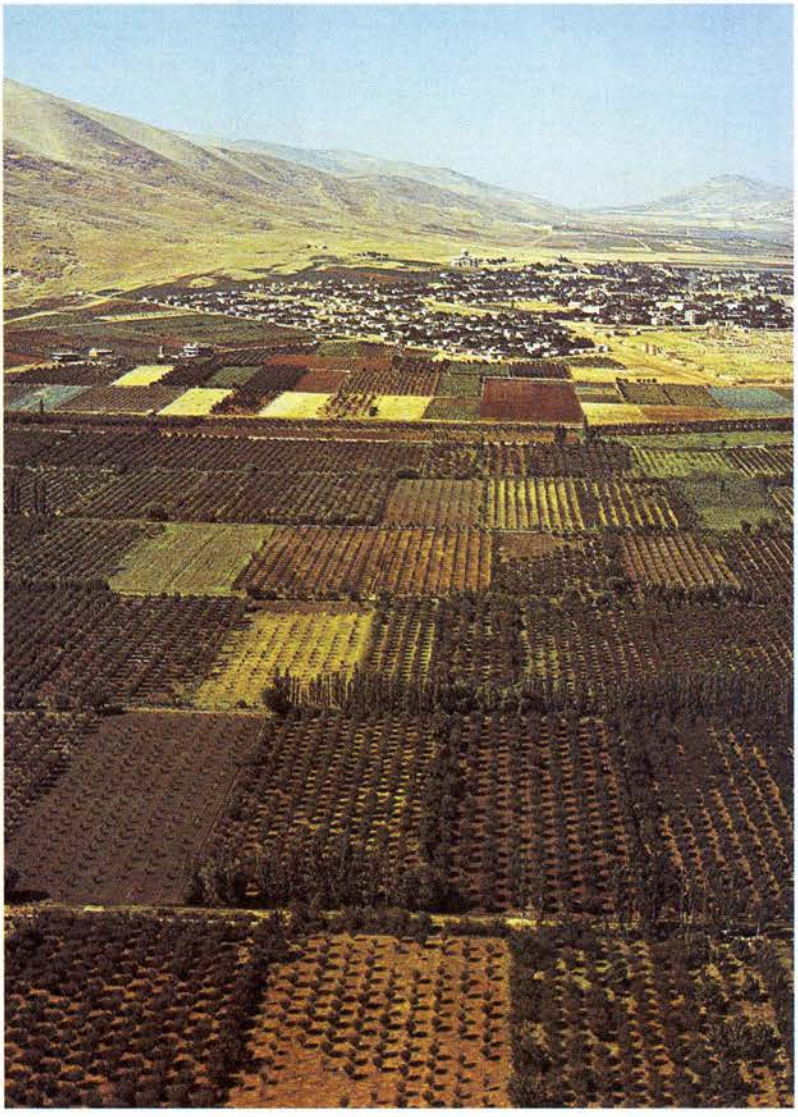

من «وادي لبنان» (= سهل البقاع)،
تتدفق الخيرات الوفيرة

حين نقرأ سفر يشوع، نعثر مرتين على عبارة عبريّة ترتبط بلبنان، هي التالية: «ب ق ع ت هـ-ل ب ن و ن». البقعة هي القطعة من الأرض. نقرأ في العربية وفي العبريّة : الوادي والسهل والحوض؛ فماذا يا ترى يعني «سهل لبنان» الذي يتحدث عنه يش ١١:١٧، فيقول : «من الجبل الأقرع الممتد جهّة سعير إلى بعل جاد في بقعة لبنان، تجاه جبل حرمون». وتنعكس الجملة على المستوى الأدبي في يش ٢١:٧ : «من بعل جاد في بقعة لبنان إلى الجبل الأقرع الممتد إلى سعير».

نشير أوّلاً إلى أن نص يشوع الذي يمتد من ١١:١٦ إلى ١٢:٢٤، هو تجميع ينطلق من تقاليد قديمة حول التحالفات بين يشوع، من جهة الجنوب ومن جهة الشمال. الجبل الأقرع أو جبل حلق يقع في النقب، في الجنوب. و«بقعة لبنان» تقع في الشمال. هذا ما يقابل نصوصاً أخرى تجعل أرض القبائل تقع بين دان (في الشمال قرب بانياس) وبئرسبع (في الجنوب).

«بقعة لبنان» هي سهل لبنان، سهل البقاع الواقع بين السلسلتين الشرقيّة

والغربيّة. أمّا بعل جاد فقالوا إنّه يقابل بعلبك، ولكن يبدو أن الأصح هو أنّه يقابل حاصبيا. عندئذٍ، تكون «بقعة لبنان» في المعنى الحصري، وادي التيم. ودليلنا إلى ذلك، تحديد موقع بعل جاد : تحت جبل حرمون. بعل جاد هو سيّد الحظ السعيد؛ ومن أسمائه أيضاً : بعل حرمون، ودليلنا إلى ذلك مقابلة بين نصَّين كتابيَين. نقرأ الأول في قض ٣:٢: «جميع الكنعانيّين والصيدونيّين والحويين المقيمين بجبل لبنان، من جبل بعل حرمون إلى مدخل حماة». والثاني في يش ١٣:٥-٦ : «وأرض الجبلين وكل لبنان من جهة مشرق الشمس، من بعل جاد تحت جبل حرمون، إلى مدخل حماة. جميع سكان الجبل...»

هل نستطيع القول إن «سهل البقاع» وجد أصل اسمه في لفظة «بقعة» التي نجد آثارها في نص يشوع؟ الأمر معقول. فهذا السهل لعب دوراً كبيراً في القديم، على مستوى المواصلات؛ فكان الطريق الرئيسيّة بين مصر، من جهة، وسورية، وبلاد الرافدين، من جهة ثانية. تمرّ في وادي التيم، فتصل إلى وادي نهر العاصي.

عرفت البقاع عن حدودها الجنوبيّة كامد اللوز التي أقام فيها حكم رابو من قِبَل مصر منذ الألف الثاني ق. م.، وفي الشمال، بعلبك مدينة الشمس لدى اليونان والرومان، وتل الغسيل القريب

في «وادي لبنان» (سهل البقاع) يركم التاريخ آثاره المدوية، وعلى قمم حرمون جاره يتلألأ الثوب الناصع البياض كثوب مَن تجلى يوماً فوق إحدى روابيه وأظهر مجده!

من بعلبك، وتل حزّين الذي كان عاصمة إمارة مصريّة في القرن العشرين. والهرمل التي منها خرج دانيل، رجل هَرْنَم، كما تقول النصوص الأوغاريتية.

هذه البقاع ستلعب دوراً كبيراً في الحقبتَين الهلّينستيّة والرومانيّة. سُميت «سورية الجوفاء» أو «قولي سورية»، وصارت أهراء القمح بالنسبة إلى روما، وشكّلت فيها بعلبك محطة في طريق القوافل حتي تدمر وأبعد منها. ابتدأ هذا السهل من بقعة في الجنوب، من سهل أو وادٍ، فوصلت إلى لُبو حماة أو اللبوة التي شكّلت الحدود الشماليّة لكنعان من وإلى ربلة التي كانت مركز قيادة نكو، الفرعون المصري (٢ مل ٢٣:٣٣). هناك قيّد يوآحاز وجعله يدفع الجزية، بانتظار أن يرسل منها نبوخذنصّر جيوشه على أورشليم، فيأخذها ويحرقها ويسبي وجهاء سكانها مع ملكها.

«بقعة لبنان»، أو «وادي لبنان»، هي جزء من كل. وقد تطلّعت التوراة دوماً إلى جبل لبنان الأبيض بثلوجه، الأخضر بغاباته، الغني بمدنه، المنفتح على بحره. فمن لبنان تأتي عروس الرب، بل إن لبنان يخص اللّه، شأنه شأن جلعاد (إر ٢٢:٦). فالذي خلق الكون ورآه جميلاً، سيأخذ من أرز لبنان لهيكله. وهل ندهش بعد ذلك أن يكون موسى قد تمنّى قبل موته أن يرى لبنان هذا الجبل الطيّب؟!

أليست «كامد اللوز» هي «لُوز» البيبلية؟

رنى ريمون حريز

دراسات معمّقة في علم الآثار

موقع كامد اللّوز

١ – الموقع والتنقيبات

تقع كامد اللوز المدينة الفينيقيّة في سهل البقاع، على مسافة ٣ كلم من جب جنين (مركز قضاء البقاع الغربي، لبنان)، وترتفع عن سطح البحر ٩٥٠ م، كما يبلغ علو تل كامد اللوز الأثري فوق مستوى السهل المحيط به حوالي ٢٦ م، قطره ٢٤٠ م من الشرق إلى الغرب، وحوالي ٣٠٠ م من الشمال إلى الجنوب.

منذ القدم كان لهذا التل موقع جغرافي مميز. فهو نتيجة التقاء طريقَي تجارة قديمتين: الأولى تنطلق من البحر الأبيض المتوسط عبر السلسلتين الجبليتين الغربية والشرقية باتجاه دمشق، والثانية تأتي من مصر مروراً بالبقاع فوادي العاصي حتى الأناضول، وما زالت حتى يومنا هذا تسمية درب مصر ودرب الشام شاهدة على أهميّة موقع كامد اللوز الجغرافي. وكانت أيضاً همزة وصل بين عدة مدن وأمبراطوريات كصيدون، دمشق، صور، فلسطين، آسية الصغرى، وبلاد ما بين النهرين. نادراً ما حدث أن وجدت الحضارات متداخلة في مكان صغير واحد، كما وُجدت في تل كامد اللوز اللبناني.

فيما كان البروفسور الألماني كُوشْكِ (kuschke) يجري أبحاثاً في رسائل تل العمارنة، اكتشف أنّ هنالك مدينة اسمها «ك م د» (حرف أكادي) والتي وردت أيضاً في رسائل تل العمارنة حوالي خمس مرات تحت اسم كوميدي في عهد الفرعون آمينوفيس الثالث (١٣٩٠–١٣٥٢)، والفرعون آخناتون (١٣٥٢–١٣٣٦). وورد اسمها في حوليات تحوتمس الثالث المدوَّنة على جدران معبد الكرنك في مصر، بلفظة «كاماتا» أو «كاميتي»: ويُذكر أيضاً أنّ مملكة كوميدي كانت خاضعة للفرعون ويجبي منها الضرائب، وكانت عبارة

عن مركز حكومي لمنطقة أوبِي (Oupe) التابعة لدمشق، فرجّح أن مملكة كوميدي هي كامد اللوز البقاعيّة.

هذا ما دفع إلى إرسال أول بعثة ألمانيّة برئاسة كُوشْكِ سنة ١٩٥٤ الى تل كامد اللوز، وكانت بداية التنقيب سنة ١٩٦٣ بإشراف كُوشْكِ وهاخمان؛ وكان في قوام فريق هذه البعثة خبراء وطوبوغرافيّون ومرمّمون ورسّامون، وعملت بإشراف مدير الآثار آنذاك المير موريس شهاب، وكانت إقامتهم في ميتم شنيلر في خربة قنافار. ثابرت البعثة الألمانيّة على الحفر والتنقيب خلال مواسم عدة تتراوح مدتها ما بين الشهرين أو الثلاثة حتى سنة ١٩٨٤، إذ اضطرت إلى توقيف العمل لأسباب أمنية محضة، غير أنها ظلت تقوم بدرس المكتشفات الأثريّة، وتنشرها في مجلات علميّة تعميماً للفائدة الأركيولوجيّة والتاريخيّة. وقد سنحت الظروف للعودة لاستئناف أعمال التنقيب في هذين العامين.

اكتشفت البعثة في التل معبداً وقصراً وسوراً (سنعود اليها لاحقاً) ولُقى يعود تاريخها الى الألف الثالث ق. م.؛ أمّا المنطقة المجاورة له فتحتوي على آثار مقالع وقبور محفورة في الصخر، وعلى كتابات آراميّة. ومن هذا المقلع استخرج العمال النساطرة الذين استقدمهم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الحجارة التي بنيت منها قلعة عنجر في أوائل القرن الثامن الميلادي.

دلت هذه الآثار على أن شعوب المنطقة في تلك المرحلة كانت لديها وحدة ثقافيّة ونسبة من التقارب الاجتماعي–السياسي الملحوظ، كما تفوقت أيضاً في ميدان التجارة. وتجارتها لم تكن مقتصرة على المناطق الداخليّة، بل شملت المدن الساحليّة حتى بلغت جزيرة قبرص. ويبدو التبادل التجاري في كامد اللوز وقبرص محلياً من خلال الأباريق القبرصيّة التي وُجدت في قصر الحاكم، وأشغال العاج والمصاغ والمجوهرات واللعب التي فيها تشابه كبير مع القطع القبرصيّة. وكان القسم الأكبر من مستورادت كامد اللوز يأتي من وادي النيل، منها الذهب والأواني الحجريّة المنقوشة عليها كتابات هيروغليفيّة. وكانت تأتيها أحجار الفيروز من سيناء، والأقمشة والأردية من بلاد ما بين النهرين.

محلياً، كانت كامد اللوز، إلى جانب المدن الفينيقيّة، تتعاطى النقش على العاج، وصناعة الأقمشة الأرجوانيّة الفينيقيّة المشهورة، والأوعية الزجاجيّة، وصناعة المجوهرات والبرونز، حيث تستورد المواد الأوّليّة من بلاد الأناضول، كما أنّها كانت من أهمّ المراكز لتصدير أرز لبنان المشهور برًا.

امتدت أعمال التنقيب في التّلّ بشكل رئيسي في القسم الشمالي الغربي منه بمساحة ٥٧٠٠ م٢، وبعمق ٧،٥٤ م. أقدم الآثار في القسم الشمالي من الموقع هي من العصر الحجري الأخير، كما وجدت قطع من الفخار من العصر البرونزي القديم. كذلك كان العثور على سور محصّن في الجانبين الشمالي والشرقي من التل، وعلى قصر وهيكل من العصر البرونزي الوسيط، وعلى مقبرة فارسيّة تحتوي على ما يقارب مائة قبر، تمّ التنقيب عن ٩٣ قبراً منها حيث عُثر في أكثرها على أوانٍ مدفنيّة وفخاريات وزجاجيّات وسواها. ومن أهمّ الاكتشافات وأعظمها ألواح فخّاريّة عليها كتابات هيروغليفيّة عرف أنّها إحدى الرسائل المتبادلة مع الفراعنة، وأعطت برهاناً ساطعاً أنّ كامد اللوز هي بالفعل المدينة المحكى عليها في رسائل تل العمارنة، والتي أثبتت صحة توقعات العالم الالماني. لم يشمل التنقيب القسم الجنوبي من التل، لأن الحفريات اصطدمت بمزار الشيخ يونس التغلبي (أحد مشايخ الصوفية) ومقبرة البلدة، فالمكان المنقب عنه مغطى بطبقات سكنية من العصر البيزنطي والروماني واليوناني (الهليني) والفارسي.

٢ – المعبد

تعرّض هذا المعبد أكثر من مرة للهدم وإعادة البناء والترميم بسبب الحروب أو الهزات آنذاك، لكن أساساته، كما تبين، لا تزال جيدة. مساحته ٧٢٥م٢. للمعبد مدخلان منفصلان تماماً. وهذا ينقسم الى قاعتين كبيرتين، قاعة شرقيّة، وكانت مخصصة لحفظ الأدوات المقدسة والتي أصبحت غير صالحة للاستعمال، وقاعة غربية لا بد أنّها قدس الأقداس. يوجد في القاعتين منشآت عدة ذات مغزى في عبادة الآلهة في ذلك الوقت. وينتصب أمام القاعة الغربية مباشرة مذبح مرصوف الجدران، وبجانبه عامودان طليقان دون دور بنياني داعم؛ الأعمدة الطليقة المرتبطة بهياكل عبادة تذكّر بهيكل سليمان، وبالعامودين «بوعز» و«ياكين» (١ مل ٧:١٥–٢٢) اللذين أنجزهما ونصبهما حيرام الفينيقي بأمر من الملك سليمان. ويبدو واضحاً أن سليمان قد استلهم مثالات فينيقيّة لبناء الهيكل. وهذا ليس مستغرباً بالنظر الى استقدامه بنّائين وحرفيي صناعات فنيّة فينيقيّين. ما يعزز هذا الاعتقاد هو اكتشاف حوض أمام الجناح الغربي للمعبد رصفت حجارة جدرانه بدون

عن مركز حكومي لمنطقة أوبي (Oupe) التابعة لدمشق، فرجّح أن مملكة كوميدي هي كامد اللوز البقاعيّة.

هذا ما دفع إلى إرسال أول بعثة ألمانيّة برئاسة كُوشْكِ سنة ١٩٥٤ الى تل كامد اللوز، وكانت بداية التنقيب سنة ١٩٦٣ بإشراف كُوشْكِ وهاخمان؛ وكان في قوام فريق هذه البعثة خبراء وطوبوغرافيّون ومرمّمون ورسّامون، وعملت بإشراف مدير الآثار آنذاك المير موريس شهاب، وكانت إقامتهم في ميتم شنيلر في خربة قنافار. ثابرت البعثة الألمانيّة على الحفر والتنقيب خلال مواسم عدة تتراوح مدتها ما بين الشهرين أو الثلاثة حتى سنة ١٩٨٤، إذ اضطرت إلى توقيف العمل لأسباب أمنية محضة، غير أنها ظلت تقوم بدرس المكتشفات الأثريّة، وتنشرها في مجلات علميّة تعميماً للفائدة الأركيولوجيّة والتاريخيّة. وقد سنحت الظروف للعودة لاستئناف أعمال التنقيب في هذين العامين.

اكتشفت البعثة في التل معبداً وقصراً وسوراً (سنعود اليها لاحقاً) ولُقى يعود تاريخها الى الألف الثالث ق. م.؛ أمّا المنطقة المجاورة له فتحتوي على آثار مقالع وقبور محفورة في الصخر، وعلى كتابات آراميّة. ومن هذا المقلع استخرج العمال النساطرة الذين استقدمهم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الحجارة التي بنيت منها قلعة عنجر في أوائل القرن الثامن الميلادي.

دلت هذه الآثار على أن شعوب المنطقة في تلك المرحلة كانت لديها وحدة ثقافيّة ونسبة من التقارب الاجتماعي–السياسي الملحوظ، كما تفوقت أيضاً في ميدان التجارة. وتجارتها لم تكن مقتصرة على المناطق الداخليّة، بل شملت المدن الساحليّة حتى بلغت جزيرة قبرص. ويبدو التبادل التجاري في كامد اللوز وقبرص محلياً من خلال الأباريق القبرصيّة التي وُجدت في قصر الحاكم، وأشغال العاج والمصاغ والمجوهرات واللعب التي فيها تشابه كبير مع القطع القبرصيّة. وكان القسم الأكبر من مستورادت كامد اللوز يأتي من وادي النيل، منها الذهب والأواني الحجريّة المنقوشة عليها كتابات هيروغليفيّة. وكانت تأتيها أحجار الفيروز من سيناء، والأقمشة والأردية من بلاد ما بين النهرين.

محلياً، كانت كامد اللوز، إلى جانب المدن الفينيقيّة، تتعاطى النقش على العاج، وصناعة الأقمشة الأرجوانيّة الفينيقيّة المشهورة، والأوعية الزجاجيّة، وصناعة المجوهرات والبرونز، حيث تستورد المواد الأوّليّة من بلاد الأناضول، كما أنّها كانت من أهمّ المراكز لتصدير أرز لبنان المشهور برًا.

امتدت أعمال التنقيب في التّلّ بشكل رئيسي في القسم الشمالي الغربي منه بمساحة ٥٧٠٠ م٢، وبعمق ٧،٥٤ م. أقدم الآثار في القسم الشمالي من الموقع هي من العصر الحجري الأخير، كما وجدت قطع من الفخار من العصر البرونزي القديم. كذلك كان العثور على سور محصّن في الجانبين الشمالي والشرقي من التل، وعلى قصر وهيكل من العصر البرونزي الوسيط، وعلى مقبرة فارسيّة تحتوي على ما يقارب مائة قبر، تمّ التنقيب عن ٩٣ قبراً منها حيث عُثر في أكثرها على أوانٍ مدفنيّة وفخاريات وزجاجيّات وسواها. ومن أهمّ الاكتشافات وأعظمها ألواح فخّاريّة عليها كتابات هيروغليفيّة عرف أنّها إحدى الرسائل المتبادلة مع الفراعنة، وأعطت برهاناً ساطعاً أنّ كامد اللوز هي بالفعل المدينة المحكى عليها في رسائل تل العمارنة، والتي أثبتت صحة توقعات العالم الالماني. لم يشمل التنقيب القسم الجنوبي من التل، لأن الحفريات اصطدمت بمزار الشيخ يونس التغلبي (أحد مشايخ الصوفية) ومقبرة البلدة، فالمكان المنقب عنه مغطى بطبقات سكنية من العصر البيزنطي والروماني واليوناني (الهليني) والفارسي.

٢ – المعبد

تعرّض هذا المعبد أكثر من مرة للهدم وإعادة البناء والترميم بسبب الحروب أو الهزات آنذاك، لكن أساساته، كما تبين، لا تزال جيدة. مساحته ٧٢٥م٢. للمعبد مدخلان منفصلان تماماً. وهذا ينقسم الى قاعتين كبيرتين، قاعة شرقيّة، وكانت مخصصة لحفظ الأدوات المقدسة والتي أصبحت غير صالحة للاستعمال، وقاعة غربية لا بد أنّها قدس الأقداس. يوجد في القاعتين منشآت عدة ذات مغزى في عبادة الآلهة في ذلك الوقت. وينتصب أمام القاعة الغربية مباشرة مذبح مرصوف الجدران، وبجانبه عامودان طليقان دون دور بنياني داعم؛ الأعمدة الطليقة المرتبطة بهياكل عبادة تذكّر بهيكل سليمان، وبالعامودين «بوعز» و«ياكين» (١ مل ٧:١٥–٢٢) اللذين أنجزهما ونصبهما حيرام الفينيقي بأمر من الملك سليمان. ويبدو واضحاً أن سليمان قد استلهم مثالات فينيقيّة لبناء الهيكل. وهذا ليس مستغرباً بالنظر الى استقدامه بنّائين وحرفيي صناعات فنيّة فينيقيّين. ما يعزز هذا الاعتقاد هو اكتشاف حوض أمام الجناح الغربي للمعبد رصفت حجارة جدرانه بدون

ملاط، ويصل قعره إلى حوالي المترين. ظاهراً، يبدو هذا الحوض مبنيّاً لاستيعاب كميات كبيرة من الماء، بدليل الترسبات الشحيحة التي كانت تغطي قعره. من الأكيد أن الحوض كان يتمتع بدور طقسي، مما يحمل على القول بأن العلاقة مع «بحر النحاس» (٢ أخ ٨:١٨) في هيكل سليمان ليست كثيرة الاستبعاد إذا ما تأملنا في مقاسات الحوض، إذ يساوي قطره حوالي ٥ أمتار وعمقه أكثر من مترين. بالإضافة إلى اكتشاف أحواض أخرى، كانت مخصصة لتقديم المشروب قرباناً في سبيل الآلهة ولحرق الذبائح.

نستنتج مما ورد، أن هذا المعبد المؤلف من بناءَين مختلفين، يدل على أن الناس كانوا ربما يعبدون إلهَين مختلفَين. أما تعدد الغرف في كل بناء، فإنه ربما يدل على ممارسات دينية متعددة، أو تعود إلى عدد الآلهة التي كانت تعبد في ذلك الحين.

٣ – القصر

أما قصر الوالي المؤلف من ثلاثة طوابق، فكان يشتمل على أجنحة متعددة كانت تتصل في ما بينها جزئياً بممرات مسقوفة. أحد الأجنحة كان يستخدم للطهي وحفظ المؤونة، بينما كان جناح آخر مسكناً لعائلة الحاكم. وتشير الدلائل الأثرية إلى أن القصر قد تعرض للدمار أربع مرات متتالية بفعل الحروب والزلازل، فهوى البناء، وطمر تحت أنقاضه كل ما كان موجوداً آنذاك: الأواني المنزلية، الأثاث، الأوعية، والأدوات.

٤ – القطع الأثرية

بسبب الظروف الأمنية، وحفاظاً على الآثار القيمة المكتشفة في كامد اللوز، عهد مدير الآثار إلى البروفسور رالف هاخمان بمجموعة القطع الأثريّة للعناية بها وإعادتها إلى لبنان عند الطلب.

وهذا ما حصل بالتمام، إذ إن هاخمان حافظ على هذه القطع، لا بل عمد إلى إنشاء متحف جوّال يحمل اسم «الفينيقيّون في لبنان»، ضم في محتوياته هذه الآثار التي تظهر للمرّة الأولى في العالم. ومن بين هذه الآثار مجموعة من الحلى النادرة (خواتم وعقود) وأدوات التبرج والزينة والفخاريات والألبسة الحريريّة، كذلك مجموعة من التماثيل المنحوتة على حجارة المرمر، تمثل أشخاصاً يعزفون على آلات موسيقيّة، وجنوداً يقودون عربات تجرها جياد، الى جانب كميّة كبيرة من الأصداف والحجارة الفريدة الشكل والأحجام، وكميّة من الأعتدة العسكريّة، كالسيوف والدروع.

سنة ١٩٩٥، سافرت بعثة لبنانيّة إلى ألمانية برئاسة المدير العام للآثار، واسترجعت حوالي ٥٧٥ قطعة أثريّة، وأودعتها في المتحف الوطني في بيروت.

اقترحت في إحدى مقالاتي وأردد القول مجدداً بأن يصار إلى إنشاء متحف في كامد اللوز وعرض الأثارات العائدة لها، لإظهار قيمتها الغالية والتي لا تقدر بثمن، ولتنمية السياحة فيها وفي المنطقة.

٥ – «لُوز» في البيبليا

هناك نظرية بدأت تظهر إلى الوجود، وهي تتحدث عن «لُوز»، الاسم القديم لبيت إيل. فنحن نقرأ هذا الاسم في تك ١٩:٢٨ : «وسمّي ذلك المكان «بيت إيل»، وكان اسم المدينة أوّلاً «لوز»». ففي مسيرة يعقوب من أرض كنعان إلى بلاد الرافدين، قد يكون مرّ في تلك المدينة التي عُرفت على أنها في ملتقى الطرق. وكما في طريق الذهاب، كذلك في طريق العودة، مر يعقوب في «لُوز». نقرأ في تك ٦:٣٥ : «وجاء يعقوب إلى لُوز التي في أرض كنعان أو في بيت إيل». هذا يعني أنّه وُجد أكثر من مكان اسمه بيت إيل، أو بيت الاله. بدت موضعاً هاماً في حياة يعقوب : أيكون أصله من هناك؟ فهو حين يعلن وصيّته قبل موته، يذكر هذه المدينة التي كانت في بداية دعوته وانطلاقته، كما كانت أور (أو حاران) موضوع انطلاقة ابراهيم الذي دعاه اللّه لكي يترك الأرض والعشيرة والبيت. نقرأ في تك ٢:٤٨ : وقال يعقوب ليوسف : «إنّ اللّه القدير تراءى لي في لُوز، في أرض كنعان وباركني». بدت لُوز متماهية مع بيت إيل في سفر التكوين.

أمّا في يش ٢:١٦ فتميّزت الواحدة عن الأخرى، فنقرأ : «يمتد (الجبل) من بيت إيل إلى لُوز». ولكن يش ١٨: ١٣ يعود فيقول إن لوز هي بيت إيل : «تمرّ الحدود من هناك إلى لُوز، إلى جانب لُوز الجنوبي، أي بيت إيل».

وأخيراً، يتحدّث سفر القضاة عن مدينة ومدينة. قال في ٢٣:١ : «وتجسّس آل يوسف بيت إيل (وكان اسم المدينة قبلاً لُوز). دلّهم أحدُ الرجال على مدخل المدينة، فاحتلّوها وضربوا أهلها بحدّ السيف، ما عدا ذاك الرجل وعشيرته. عندئذ ذهب إلى أرض الحثيين، أي أرض سورية ولبنان الشرقي. وبنى مدينة وسمّاها «لُوز»، وهو اسمها إلى اليوم (قض ٢٦:١). هذا النص الذي جاء متأخّراً، شأنه شأن نص يشوع، يتذكر أموراً عن لُوز ويجعلها عمليّاً خارج أرض كنعان. أما تكون لُوز هذه كامدَ اللوز التي دمّرت ربما مع تخلي مصر عن سياستها في الشرق الأوسط القديم لتعود الى أفريقيا؟

رمزيّة انفتاح صور في الكتاب المقدّس
استناداً إلى حزقيّال ٢٦-٢٨

الشماس جان فرح
والشماس فريحة عقيقي

١ – مقدمة

كما في الكتاب المقدّس، كذلك في رأي جميع الكتّاب الذين اهتمّوا بموضوع مدينة صور، تظهر شهرة هذه المدينة بسبب تجارتها الواسعة وغناها الكبير. لم يشتهر بحّاروها بشجاعتهم فقط إنّما بمهارتهم أيضاً، ويعود الفضل إليهم لِمَا أصبحت عليه، وبحسب تسمية أشعيا النبي (٢٣:٣) لها، «متجر الأمم».

في الفصل ٢٧ من كتاب حزقيّال النبي يسرد هذا الأخير قائمة كبيرة بأسماء الشعوب التي كانت صور على علاقة تجاريّة بها، وبالبضاعة التي كانت تستوردها أو تصدرها أو تتقايضها. إنّها فعلاً، كما يقول حزقيّال فيها، «المتاجرة مع شعوب الجزر البعيدة» (٢٧:٣)، أي أنّها كانت تتاجر في عدد كبير من البُقع في العالم. وإذا كان أنبياء اسرائيل يُبرزون غناها وعظمتها، فلا ينسون أن يندّدوا بكبريائها، وبترفها المذنب، بجشعها وبحيلتها، كما أنهم لا ينسون أيضاً أن يتنبأوا لها عن عقابات اللّه التي ستحلّ بها بسبب عيوبها.

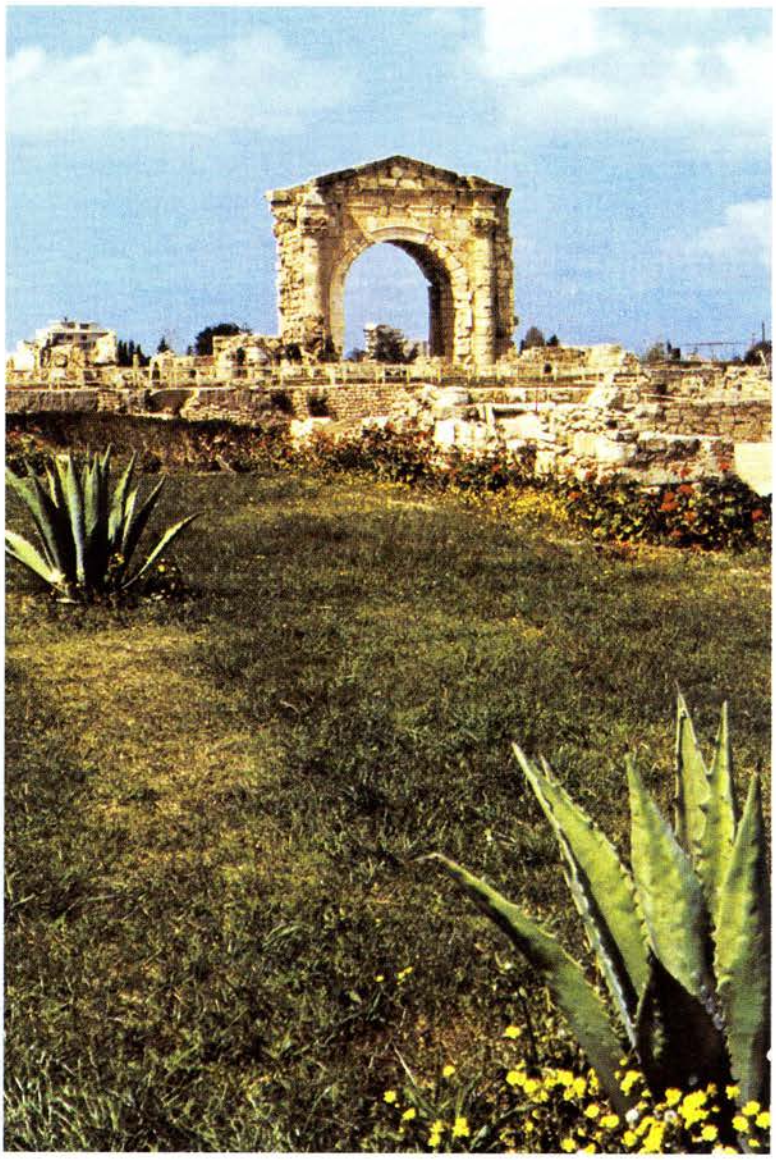

صور العظيمة

هذه الهالة المحيطة بمدينة طَوَت السنين عليها صفحات ملوّنة ومتنوّعة، استمالت انتباهنا وجعلتنا نبحث في رمزيّة انفتاحها إلى الخارج وإشعاعها المتنوّع.

من خلال الكتاب المقدّس، سنكتشف مكانتها الخاصّة، ابتداء من الدور الذي لعبته من بناء هيكل سليمان، مروراً ببشارة يسوع من نواحيها، ووصولاً إلى مرور الرسل وبولس فيها.

في ما يلي، ولضيق الوقت، لن نستطيع عرض كل ما آل إليه بحثنا، وإنّما سنوجز بعض النتائج التي توصّلنا إليها. ففي مرحلة أولى سنعطي لمحة تاريخيّة عامّة عن مدينة صور، ثمّ نبرز دلائل انفتاح صور في الكتاب المقدس عامة، لنتطرق بعدئذ إلى هذا الموضوع، انطلاقاً من الفصول ٢٦–٢٨ من سفر النبي حزقيال.

٢ – لمحة تاريخيّة

«صور» هي كلمة فينيقيّة الأصل تعني «الصخرة»، ويُعنى بها حصراً المدينة التي بنيت في البدء على جزيرتين صخريتين صغيرتين. تقع على بعد ٣٥ كلم جنوبي مدينة صيدا من فينيقيا الجنوبيّة. في القرن العاشر قبل الميلاد وسّعها الملك حيرام الأوّل حتى أصبحت المدينة الرئيسيّة في فينيقية، حيث أخذ الملك ملكرت (ملك المدينة) صفته القانونيّة. وفي هذا العهد أيضاً بدأ امتدادها الثقافي والتجاري.

كان داود وسليمان على علاقة جيّدة معها (كما نرى في ١ صم و١ مل)، تحولت إلى تحالف معها، وازداد عمقاً عندما تزوّج الملك آحابُ من إيزابيل ابنة أَنبَعَل ملك صور. كان هذا التحالف محاولة احتلال حقيقيّة من الناحيتين الثقافيّة والدينيّة نُفذت على اسرائيل.

عند الأنبياء، تبدو صور كالمدينة المُستغلّة والمُفسِدة التي جذبت إليها اللعنات (عا ١:٩؛ أش ٢٣؛ حز ٢٦–٢٨). حافظت غالباً على استقلاليتها في عهد الأمبراطوريات الآشوريّة والبابليّة والفارسيّة، وأكثر من مرّة دافعت عن نفسها أو ثارت بمساعدة مصر.

قال فيها أحد المصريّين (سنة ١٣٥ ق. م.) إنّها تبدو كمرفأ غنيّ بالسمك أكثر منه بالرمل. وحوالي سنة ١١٣٠ ق. م.، وصل بحّاروها إلى الشواطئ الغربية لِمَا يسمّى اليوم البرتغال واسبانيا، مروراً بمضيق جبل طارق. هذا النشاط غير الاعتيادي جعل الكتاب والمؤرّخين يكتبون عنها وعن علاقاتها المتشعبة والبعيدة، بسبب رغبتها بالتوسّع التجاري.

أمّا في عهد الاسكندر الكبير، فقد حاصرها هذا الأخير لمدّة سبعة أشهر، بعد أن ردم البحر ووصل اليَبس بالمدينة. دُمّرت صور تدميراً كاملاً على مستوى عنادها أمام الفاتح. ولكن سرعان ما أُعيد تأهيلها، واستعادت ازدهارها، حتى إن عملتها في القرن السادس أضحت متداولة رسميّاً في أسواق البلدان المجاورة، كما هو الحال بالنسبة إلى الدولار في أيامنا.

لم يتراجع نشاطها إلاّ بعد الفتح الإسلامي سنة ٦٣٨، الذي حوّل البحر الأبيض المتوسط إلى ساحة معارك بحريّة.

تعود صور وشهرتها إذاً إلى العصور القديمة، ولكن ما قاله فيها المؤرّخون القدماء لا يخلو من تفاصيل أسطوريّة.

٣ – دلائل انفتاح صور في الكتاب المقدس

١/٣ – انفتاح على مختلف الشعوب

تبدو صور من خلال الكتاب المقدس، وخصوصاً في الفصل ٢٧ من حزقيال، على علاقة بالشعوب المختلفة والعديدة من مناطق شتّى. وهذه البلدان تمتد عبر البحر الأبيض المتوسط، من مصر وجزر أليشة (أي جزيرة قبرص) وأرواد وتوبال وماشك، إلى آسية الصغرى، فالمحيط الأطلسي، إلى جزر ترشيش التي هي في اسبانيا التي كانت تُعتبر آخِرَ العالم. وشرقاً، اتجه الصوريون برّاً إلى داخل الشرق الأوسط، وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين.

٢/٣ – محتوى هذا الانفتاح

سنميّز بين عدّة أنواع من الانفتاح، منها ما هو معنوي ومنها ما هو مادي.

أ – أمّا **الانفتاح المعنوي** فيتبدّى في انفتاح الذهن الذي تحلّى به الصوريّون في ذلك الزمان. وعلى صعيد العلاقات، نرى دلائل صداقة بين حيرام ملك صور وسليمان ملك اسرائيل، صداقة متوارثة من أيام داود (١ مل ٥:٥؛ ٢ أخ ٢:٢)، بدأت باتّفاقيّة عُقدت بين الملكين (١ مل ٢٦:٥)، وستؤدي إلى علاقة صداقة عُبّر عنها بكلمة «يا أخي» التي استعملها حيرام لسليمان (١ مل ١٣:٩)، والتي سيندد عاموس بنقض الصوريين لها، قائلاً بأن هؤلاء «قد خانوا عهد الأخوّة» (عا ١:٩).

نلاحظ أيضًا علاقة قربى، كما هو الحال مع الملك آحاب الذي اقترن بايزابل ابنة أنبعل.

من ناحية أخرى، نرى دلائل انفتاح

ذهن الصوريّين من خلال العبارات المستعملة والتي توضح حكمتهم وذكاءهم، كما في حز ٢٧:٨، حيث نجد التسمية «حكماء صور»، أو في أوّل الفصل ٢٨، حيث يُنذر اللّه بسوء استعمال ملك صور لذكائه الذي أدّى به إلى الكبرياء، وجعله يحسب نفسه إلهاً.

نرى أيضاً نوعاً آخر من هذا الانفتاح، هو الانفتاح الديني؛ يبدو ذلك في قبول ملك صور وشعبه طلب بناء هيكل لإله غير إلههم، وهذا ما لم يكن في ذلك الوقت بالأمر البسيط؛ فعندما طلب منه سليمان المساعدة لبناء هيكل باسم يهوه، استجاب حيرام «بفرح عظيم» (١مل ٥:١٩-٢١).

ب - أمّا الانفتاح المادي، فيمكننا أن نميّز نوعين منه: الانفتاح العسكري، والانفتاح التجاري. في الواقع، لقد أصبحت صور مدينة كبيرة ترتبط بها دول وتدور في فلكها. فحزقيال يورد أسماء الجنود الذين خدموا في جيشها من بلاد فارس ولود وفوط وأبناء أرواد وأبطال جمد. وهناك ذكرٌ آخر لتحالفات أخرى في المكابيّين الأول، وأعمال الرسل، الخ. أكثريّة النصوص البيبليّة التي تتكلم على صور تذكر نشاطها التجاري، وخصوصاً كتاباَ الملوك الأوّل وحزقيال. أمّا في كتاب أشعيا، فتبدو صور التي «تتوّج الملوك»، و«باعتها أمراء الأرض» (أش ٢٣:٨). كما تظهر تجارتها بالمقايضة مع داود (في كتاب الملوك الأول)، ثم مع سليمان، كما مع مختلف الشعوب.

لكن هذا النشاط التجاري يبدو وكأنّه مرسوم بطريقة مطلقة ومثاليّة، فتبدو صور، كما في حز ٢٦:١٧، كالمدينة الشهيرة القويّة في البحر، والتي «بسكانها نشرت الرعب في طول البر وعرضه».

«الساكنة عند مداخل البحر»، «المتاجرة مع شعوب الجزر البعيدة»، يشبهها حزقيال بالسفينة. وهذه الأخيرة هي بحد ذاتها رمز الانفتاح، إذ إن السفينة صنعت للتغلب على العائق البحري الذي يمثل الخطر أو الشر. هذا التغلب يكون بمد اليابسة فوق المياه من أجل فتح آفاق جديدة، وتقريب حدود بلدان تقع وراء البحر (حز ٢٧:٣-٤ و٩؛ ٣٢). صور هي أيضاً التي «تشبع شعوباً كثيرة»، وبثروتها أغنت ملوك الأرض (حز ٢٧:٣٣).

٤ - في حزقيال ٢٦-٢٧-٢٨

٤/١ - ماذا في صور؟

نقرأ في **حز ٢٦:١٧** :

«ويرثونك فيقولون : كيف زلتِ من البحار، أيتها المدينة الشهيرة! يا من كنت قوية في البحر، وبسكانك نشرت الرعب في طول البر وعرضه؟!»

في هذه الآية مثل واضح عن استعمال حزقيال لعبارات تفخيميّة وتعظيميّة لشأن صور. فبقدر ما يبدي عظمتها وعظمة انفتاحها وامتدادها، بقدر ما كل الشعوب سترى كيف أن الرب سيبددها بتسليمها لنبوخذنصر ملك بابل. نرى حزقيال يعدد البلدان التي وصلت إليها وتاجرت معها، ويعدد غناها وأنواع ترفها بشكل مسهب، فيقول فيها في **٢٧:٤** ما يلي :

«أنت سفينة في قلب البحار، وبنوك كملوا جمالك».

ويعود فيعدد المواد التي كانت تُبدي غناها، من سرو سنير، وأرز لبنان، وبلوط باشان، الخ. كما يعدد الشعوب التي دخلت في جيشها، وساهمت في حمايتها، ثم البلدان التي تاجرت معها، والبضائع التي تقايضتها، وكل ذلك ضمن رثاء مُسهب يبرز النقيضين : ما كانت عليه صور من جمال وعظمة وامتداد وغنى، وما ستكون عليه بعد النبوءة من دمار وفناء.

نرى ذلك أيضاً في النبوءة على ملك صور، في الفصل ٢٨، حيث يظهر الملك «أحكم من دانيال» (البطل الشرقي المشهور بحكمته وعدله، المذكور في ملحمة أخاط الفينيقيّة)، ولا سرّ يُخفى عليه، وبمهارته وفطنته حصّل ثروة طائلة (٢٨:٣-٤). ونقرأ فيه في آ **١٢** : «كنت عنوان الجمال وغاية الحكمة والجلال. كنت في عدن، جنّة اللّه، وكان كلّ حجر كريم كساءً لك»؛ الخ. ويعدد الحجارة على أنواعها، ثمّ يكمل في آ **١٣ و١٤** : «هذا كلّه هُيّئ لك؛ يوم خلقت أقمتك حارساً يحرس جبل اللّه المقدس». وفي آ **١٥** : «كاملاً كنت في طرقك في يوم خُلقت إلى أن سقطت في الإثم».

٤/٢ - إنفتاح صور وإثمها

ما هو إثم صور وملِكِها؟ لماذا تنبأ لهم حزقيال بالعذاب والموت؟

في **الفصل ٢٦:٢** نقرأ : «بما أنّ صور شتمت أورشليم وقالت : بوابة الشعوب تحطمت وخربت، وتحوّلت كنوزها إلينا، لذلك هكذا قال السيد الرب...»

نقرأ أيضاً في **٣٧:٣** : «يا صور، أنت قلت أنا كاملة الجمال».

وفي **٢٨:٢**، في النبوءة على ملك صور، نقرأ : «تكبّر قلبك فقلت: أنا إله، وعلى عرش إله جلست في قلب البحار،

وأنت بشر ولا إله، ولكن حسبت أن فهمك كفهم إله».

وفي آ ٥ : «بمهارتك العظيمة جمعت في التجارة ثروة عظيمة، فتكبّر بها قلبك».

وفي آ ٩: «أفتقول أمام الذين يذبحونك : أنا إله ؟ لا! أنت بشر لا إله في أيدي قاتليك».

وفي آ ١٧: «تكبّرت لجمالك فأفسدت كبرياؤك حكمتك».

وفي آ ١٨: «لكثرة آثامك وظلمك في تجارتك دنّست معابدك».

ومن خلال كبرياء الملك نستشفّ كبرياء كلّ المدينة.

يتّضح لنا من خلال كلّ ما سبق أنّ حزقيّال يُبرز جمال صور وعظمتها وغناها وامتدادها، ليعود فيظهر ما سيحلّ بها من خراب، وما سيحلّ بكل هذه الأمور التي ستفنى وستختفي، وكل ذلك بسبب كبرياء شعبها وملِكها. فنراه يستعمل انفتاح صور على أنواعه، وما أدّى إليه هذا الانفتاح، ليقول لها (ومن خلالها للشعب الاسرائيلي) إنّ كلّ ذلك المجد وتلك البطولات ستزول إذا لم تتّكل على الرب الأله، وليس على ذاتها. حتى الحكمة والذكاء العاملان الأكثر ضرورة للانفتاح، استُعملا لدينونة كبرياء ملك صور، وبالتالي كبرياء الصوريّين بأجمعهم.

٥ – خاتمة

ممّا تقدّم نرى أن الكتاب المقدّس هو شاهد أكبر على نشاط صور في الألف الأول قبل عصرنا. أنواع شتى من الانفتاح المترجمة بعلاقات قائمة مع جميع البلدان دون استثناء، حتى ولو كانت التجارة هي أكثر الأحيان الباب المؤدي إلى كل علاقة. فذلك لم يمنع صور من بناء علاقات أخرى مع الشعوب البعيدة كما القريبة. علاقات صداقة، وربط قرابة، وتحالفات عسكريّة. رمزيّة هذا الانفتاح أصبحت درساً روحيّاً يندد بالكبرياء، ويُبدي فظاعة نتائجه. فحزقيال لا يهمّه انفتاح صور بحد ذاته، ولا نشاطها الاجتماعي الاقتصادي، بقدر ما يهمّه أن يستغل كلّ ذلك ليعطي دروساً للذين يتوجّه إليهم، ليساعدهم في الاتكال على اللّه وعدم استحقاق نصيب المتكبّرين.

وتبقى رمزيّة انفتاح صور أنشودة تنشدها الأجيال بشهادة الكتاب المقدّس، بشهادة آثارها وشعبها؛ وما كلام حزقيال السلبي تجاه صور سوى اعتراف ضمني بعظمتها وبقوّتها.

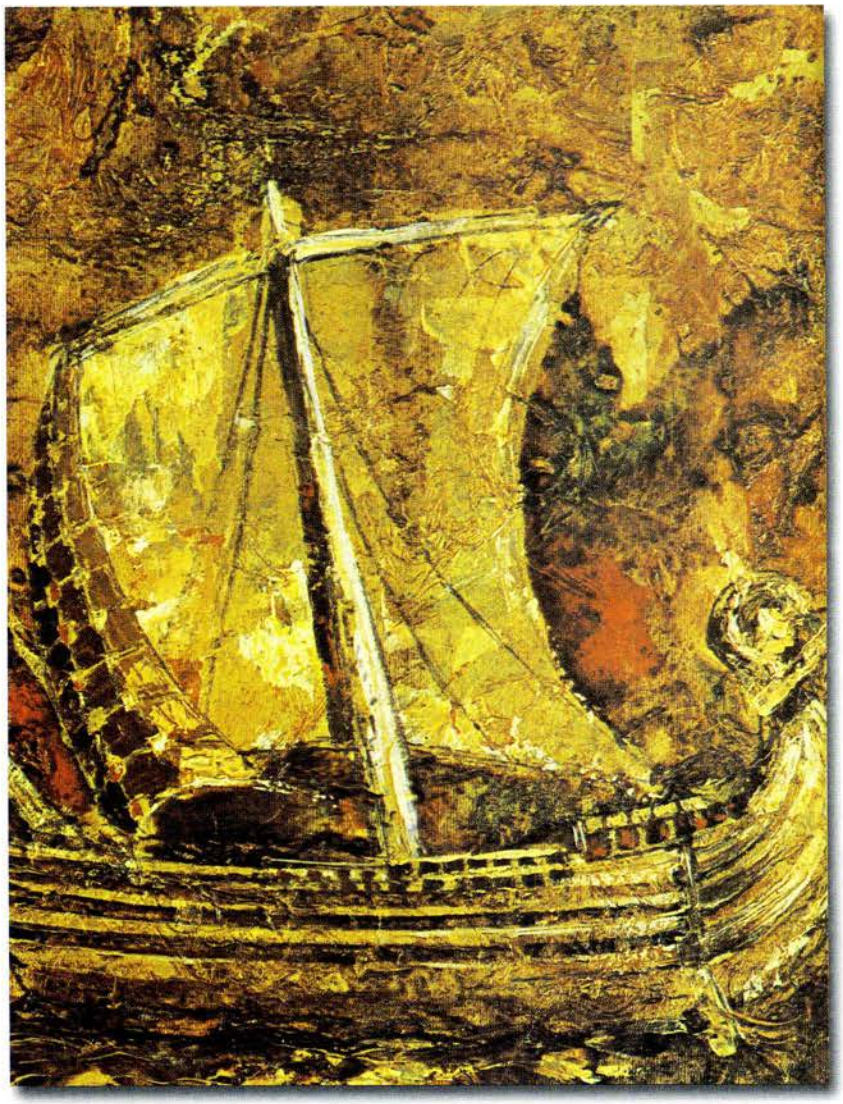

مركب فينيقي منحوت على ناووس وُجد في صيدا ١٩١٤،
وهو من رسم وتلوين Armand Ménard

صرفت صيدا
الموقع والتاريخ والرمز

الخوري بولس الفغالي

يروي سفر الملوك الأوّل أنّ إيليّا لم يستطع الإقامة في أرضه خلال الجوع الذي حلّ بالبلاد. في مرحلة أولى أقام عند العرب الذين لم يطعموه فقط لبن الإبل ومشتقاته، بل نحروا له ذبيحة، وكانوا يحملون إليه الخبز واللّحم عند الصباح وعند المساء، وهو يقيم عند سيل كريت الذي يقع شرقي الأردن (١٧: ٢-٦). احترموا صمته وصلاته، وعملوا ما عملوا ملتمسين بركته. وفي مرحلة ثانية، ذهب إيليا إلى شاطئ البحر، إلى منطقة صيدون، إلى قرية تُدعى صرفت. ماذا نعرف عن هذا الموقع الرابض على الساحل الجنوبي؟

إيليا النبي وأرملة صرفت صيدا، في جنوبي لبنان
(١ مل ١٧: ٧-٢٤)

■ ■ ■

١ – صرفت أو الصرفند

إذا أردنا أن نبحث عن موقع صرفت القديمة، نطلبها قرب الصرفند (في جنوب لبنان)، التي تبعد ١٥ كلم إلى الجنوب من صيدا، على شاطئ البحر الأبيض المتوسّط الشرقي. ذكر اسمها على خريطة مادبا في شرقي الأردن، التي تعود إلى القرن السادس ب. م.، باسم «الضيعة الطويلة» (ماكراكومي، makrakomi) لأن بيوتها امتدت على شاطئ البحر.

أوّل مرّة ذكرت صرفت، كان في لوحة أوغاريتيّة تعود إلى القرن الرابع عشر، وفيها نجد لائحة بأسماء أشخاص ترتبت حسب المدن التي جاؤوا منها، فقرأنا : «ب ن. ص ر ف ت ن».

وفي نص مصري يعود إلى الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٨-١٢٣٢)، نجد اسم صرفت في بردية أنستاسي الأول: طرح معلّم سلسلة من الأسئلة على تلميذه حول جغرافية آسيا، لكي يتعرّف إلى معلوماته، قال : «حدثني إذن، عن مدينة أخرى غريبة اسمها جبيل، ماذا تشبه؟ من هي إلاهتها؟ وهذه أيضاً لم تطأها قدماك. والآن، أعلمني عن بيروت وصيدا وصرفت». وأخيراً يرد اسم صرفت مرتين في النصوص الأشوريّة: خلال حملة سنحاريب (٧٠٥-٦٨١) الثالثة، في حطي صوَّرت حوليات هذا الملك الأشوري انتصاراته فقالت : «إن عظمة سلاح أشور، ربّي، قلب مدن صيدون الكبيرة وصيدون الصغيرة، وبيت زيتي، وصرفت ومهليبا وأوشو وأكزيب وعكا: هي مدن قوية ومحصّنة، فيها العلف والماء والسند، خضعت لدى قدمي».

والنص الثاني الذي وُجد في نينوى ويعود إلى عهد أسرحدّون (٦٨٠-٦٦٩)، يقول عن صيدون : «بين هذه المدن (= مدن صيدون)، جعلت مدينتَي معروبو وصرفت في يدي بعلو، ملك صور».

٢ – صرفت والكتاب المقدس

ونعود إلى سفر الملوك الأوّل في الفصل الرابع عشر : «وبعد أيّام جف النهر

(حرفيّاً : سيل كريت)، لأنه لم ينزل على الأرض مطر فكان كلام الرب إلى إيليا قائلاً: «قم وامض إلى صرفت التي لصيدون وأقم هناك» (آ ٧-٩).

وكما استقبل العرب إيليّا في الشرق، استقبلته أرملة في الغرب. لم يكن لها سوى بعض الماء فقدّمته، و لم يكن لها من الدقيق إلا ملء الكف، ومن الزيت إلا اليسير. أعدّت أوّلاً قرصاً (أو كعكة) لأجل إيليّا، وبعد ذلك فكّرت في نفسها وفي ابنها. من جهة، هي عظمة الضيافة، ومن جهة أخرى، عرفت أنّ هذا الإنسان ليس كسائر الناس؛ لهذا سمّته رجل اللّه، واعتبرت أنّه جاء إليها لكي يذكّرها بذنوبها؛ وكيف عرفت ذلك ؟ حين مات ابنها. كان الناس (وما زالوا في بعض الأوساط) يعتبرون المرض أو الموت عقاباً لهم على خطيئة اقترفوها. وهذه الأرملة التي فقدت ابنها، أحسّت أنّها خاطئة أمام هذا الرجل القديس. لهذا قالت له : «ما لي ولك ؟ يا ليتك ظللت بعيداً عنّي وما تدخّلت في حياتي». ولكنّ اللّه لم يرسل إيليّا إلى هذه المسكينة ليحمل إليها الموت بل الحياة. فهذه التي كانت ستموت من الجوع و لم يبق لها سوى القليل من الدقيق والزيت، نالت معجزة لم ينلها «الأبرار» في شعب اللّه. قال لها النبي : «جرّة الدقيق لا تفرغ، وقارورة الزيت لا تنقص، إلى يوم يرسل الرب مطراً على وجه الأرض» (١ مل ١٧:١٤). ثمّ إن ابنها الذي مات بسبب مرض من الأمراض، سوف يقيمه إيليّا : «أنظري، ابنك حيّ» (آ ٢٣).

أمر الرب إيليّا، فمضى إلى صرفت صيدا، ووصل إلى باب المدينة، أي إلى الساحة العامّة (آ ١٠). ويبدو أنّ أحداً لم يستقبله؛ فالجوع يعمّ البلاد. استقبلته هذه المرأة الفقيرة. وكان لهذا النبي أن يجري أكثر من معجزة في مدينة صرفت وفي بيت أرملة ليس لها من يعيلها في مثل هذه الضائقة. أنكون أكثر سخاء من اللّه؟ كلا! قدّمت هذه المرأة القليل من الدقيق، ففاض الخير في بيتها. وخدمت نبي اللّه، فقدّم لها خدمة جلّى، خدمة لا يقدّمها إنسان بقدرته الخاصّة؛ قدّم الحياة لابنها الذي مات.

هذه المرأة سيذكرها يسوع في مجمع الناصرة وسيذكر اسم قريتها : صرفت صيدا (لو ٤:٢٥-٢٦). كما أُرسل إيليّا إلى أرض وثنيّة وهناك أجرى معجزة عظيمة، كذلك سيمضي يسوع إلى خارج وطنه ويطبق على نفسه القول المأثور : «لا يُقبل نبيّ في وطنه». أترى مضى يسوع إلى صرفت ؟ ربّما، وهو الذي ذهب أكثر من مرّة إلى نواحي صور وصيدا (مت ١٥:٢١). ولا ننسى أنّ إنجيل لوقا صوّر بعض سمات يسوع انطلاقاً من إيليّا، كما صوّرها متّى انطلاقاً من موسى. وفي أيّ حال، سيكون موسى وإيليّا مع الربّ علي جبل تابور : واحد يمثّل الشريعة، وآخر يمثّل الأنبياء.

٣ - وماذا عن صرفت القديمة

ذكرنا النصوص القديمة التي أوردت اسم صرفت، فلم يعد من شك في الكلام عن موقعها. ونضيف إلى ذلك قطعة من الرخام اشتراها المتحف اللّبناني سنة ١٩٦٩، وعليها دُوّن : «إلى الاله القدوس في صرفت». وقد وُجدت عبارة مماثلة مدوّنة وُجدت في پوتيولي (قرب نابولي)، وتعود إلى القرن الأوّل المسيحي. كما وُجد ختم يحمل اسم صرفت، في مكان الحفريات التي تمّت بين ١٩٦٩ وسنة ١٩٧٤.

على ماذا دلّت هذه الحفريّات؟ على مكان مأهول في رأس القنطرة، يعود إلى حقبة البرونز والحديد (القرن الخامس عشر ق. م. وما بعد) وُجد حي أصحاب الصنعات والأفران، كما وُجد معبد يعود إلى حقبة الحديد في القرن الثامن. وسوف تكتشف التنقيبات أيضاً مرفأ يعود إلى الزمن الروماني بين رأس القنطرة ورأس الشيخ يعود إلى القرن الأوّل، مع رصيف مستطيل طوله ١٥ متراً، وعرضه ١٢،٥. وبجانب هذا الرصيف كانت أساسات اعتبرها الباحثون بازيليكا مربعة الزوايا تعود إلى القرن السادس ب. م.

تلك هي صرفت صيدا التي عاصرت الكنعانيّين والفينقيّين، كما اليونان والرومان. مرّ فيها إيليّا حاملاً تراث العهد القديم وعبادته للاله الوحيد. ومرّ فيها المسيح، بانتظار أن يعبر بولس في طريقه إلى أورشليم. أبحر بولس من صور وصيدا، وقيل أبحر من طبرجا شمالي جونيه. من يدري، فقد يكون أبحر في يوم من الأيّام من صرفت، هو أو غيره من المرسلين. فمن الساحل اللّبناني انطلق الفينقيّون يتاجرون. أنعجب أن يكون المسيحيون أبحروا من هناك من أجل تجارة أخرى؟ ولماذا لا تكون الصرفند أو صرفت صيدا نقطة انطلاق لحمل رسالة الانجيل؟!